الـرغبـةالوحيـدة

قصص

صـــوفى عـــبد اللــــه

المؤلف : صوفى عبد الله
الكتاب : الرغبة الوحيدة
الناشر : نادى القصة
الطبعة الأولى : ٢٠٠٢ م
رقم الإيداع : ٢٠٠٢/٨٩٨٨

نادى القصة
٦٨ شارع قصر العينى القاهرة ت : ٧٩٤١٩٢٩


الكتاب
الفضى
نادى القصة

الإهـــــداء

إلى الغائب الحاضر

نظمى لوقا

أهدى هذه الباقة

تحية حب وإعجاب

زوجتك

صوفى عبدالله



الرغبة الوحيدة

بقلب حزين، ونفس تقطر أسى ولوعة.. وقفت كوثر تنظر إلى أمها وهى منهمكة فى فرد قماش منقوش بورود كبيرة لتخرج منه ثوباً أنيقاً - كما تقول - لابنتها كوثر.. حتى تزهو به أمام من يعرفها ومن لا يعرفها؟ بل على الأخص طالبات كلية الطب، لحصولها على مجموع يؤهلها لأن تصبح إحدى طالبات هذه الكلية..

كم من السنوات مرت عليها وهى تحلم بهذا اليوم ؟ كم من ليال قضتها منكبة على دروسها لتحرز المجموع الذى سيوصلها إلى المجد؟.. مجد الالتحاق بكلية الطب..

لقد بهرتها «أنوار» طبيبة الوحدة الصحية فى ضاحية عين شمس، بهرتها بمعطفها الأبيض الناصع، والسماعة المعلقة فى رقبتها، وهى تتنقل بين المريضات والمرضى.. تكشف على هذه، وتكتب الدواء لتلك.. وكم من مرة ذهبت إليها مع أمها وأختها، وتظل تتابع أصابعها وهى تنغرس فى أمكنة من جسميهما، كأنها ساحر يمارس أعمالاً خارقة يعجز عن فهمها البشر..!.

وفى مدرستها المتواضعة فى الحى الشعبى الصغير الذى يقطنونه، كانت من أبرز الطالبات لهدوئها ورقتها، وإطاعتها لكل أوامر الست الناظرة، ومدرساتها ومدرسيها.. واختيرت الطالبة المثالية منذ بداية السنة الدراسية «الثانوية العامة».

فكوثر كبرى أخوتها وأخواتها السبعة لأب كادح يعمل ساعيا فى إحدى الوزارات صباحا، وساعيا أيضا فى مكتب أحد المحامين المشهورين مساء.. ولا يعود إلى البيت إلا فى ساعة متأخرة من الليل، وغالباً ما يكون الأبناء جميعاً قد أووا إلى فراشهم، بينما زوجته جالسة فى انتظاره لتعد له عشاءه الذى اقتطعته من طعام الغداء ليقتات به بعد يوم عصيب لم يذق فيه إلا أقل القليل...

وزوجته فتحية إنسانة طيبة صبورة تكافح لتربى أطفالها وتدبر مطالب البيت من مأكل وملبس ومن النقود التى يعطيها لها زوجها، وتحاول بقدر استطاعتها أن تقتطع قروشاً كل شهر، وأحيانا جنيها أو جنيهين «لعوادى الزمن»، وهى مؤمنة بالله وتعاليمه تقوم بكل أعمال البيت وخدمة الأولاد دون تذمر أو شكوى.. لذا فإن زوجها يعتمد عليها فى كل صغيرة وكبيرة، ويعطيها كل ما يتقاضاه من نقود. سواء من الحكومة أو من مكتب المحامى.. ولا يقتطع لنفسه إلا ما يتقوت به...

فى هذا البيت نشأت كوثر وتربت وسط أخوتها وأخواتها...

ترضى بما قسم لها من طعام أو ملبس .. فهى وسط زمرة التلميذات فى المدرسة لا تشعر بأنها أقل منهن... فجميعهن تقريبا من أوساط متقاربة.. وإن شذت واحدة أو اثنتان عن المجموعة، فليس لدرجة أن تبهر الآخريات، بل هو الشيء الذى تتمنى بعضهن أن يكون لهن مثله. كثوب أو حذاء أو حقيبة كتب مما يباع من الملابس المستوردة المستعملة...

لم تفكر كوثر يوماً أن تنظر إلى هذه أو تلك.. فكل همها كان منحصراً فى التحصيل لتستطيع أن تحقق لأبيها حلمه وهو يتطلع إليها فى إعجاب ويقول :

بنت فى شطارتك وحلاوتك يا كوثر لابد أن تكون دكتورة... هل الطبيبات اللواتى نراهن فى الوحدات الصحية يزدن عنك فى شيء؟! أنت أحسن من أحسن واحدة فيهن...

وتستمع كوثر إلى كلمات أبيها الحبيب، ويزداد انكبابها على الدرس، فهى أكثر منه رغبة وتلهفها إلى أن تصبح دكتورة يشار اليها بالبنان.

وتمضى الأيام والأم والأب يرعيان أولادهما وخصوصا كوثر الابنة الكبرى، ابنة عمريهما.. وكوثر ليست لها أى مطالب.. فهى ترضى بأقل القليل.. ولا تذكر يوماً أنها طلبت من أمها نقوداً كما يطلب أخوتها وأخواتها.. بل هى ترفض بإصرار إذا حاولت أمها أن

تعطيها يوماً نقوداً لتشترى حلوى كزميلاتها فى المدرسة... فهى تعلم كم من الجهد والعناء تكابدهما هذه الأم المسكينة لتدبر مطالب البيت ومطالب أخوتها التى لا تفرغ.. فهل تكون هى أيضا عبئا عليها؟ لكم تتطلع إلى اليوم الذى تنهى فيه دراستها وتصبح طبيبة ومن مرتبها ستعرف كيف تعوض والديها عن كل ما كابداه من كد ونصب...

وتحققت أمنيتها، ونالت ٩٩٪ فى الثانوية العامة.. «ولعلعت» الزغاريد فى شقتهم من أمها وخالاتها وعماتها.. وخرجت أكواب الشربات إلى سكان الحارة.. فهى أول فتاة فى العائلة تنال الثانوية العامة.. فما بالك إذا كان المجموع يؤهلها للالتحاق بكلية الطب ؟...

لم تصدق كوثر أنها نالت هذا المجموع.. كالمذهولة كانت.. تتحرك فى البيت بين الزائرين والأقارب وكأنها تطير.... قلبها يدق وعيناها تلمعان.. وتفكيرها كله منحصر فى اليوم الذى ستذهب فيه لتقدم أوراقها إلى كلية الطب...

وانتهت «الهيصة» واجتمع الأب والأم يفكران.. الكلام سهل ولكن ما أصعب التنفيذ... أفى قدرتهما أن يلحقاها بكلية الطب ؟ من أين لهما الانفاق عليها؟...

صحيح أن والدها ظل طوال الشهور الأخيرة يسأل كل من يعرفه عما يتكلف الطالب فى كلية الطب.. لكن أحداً لم يعطه جواباً شافياً.. وبعد نجاحها بهذا المجموع، وتأكده من قبولها فى الكلية.. أسرع الى

المحامى الذى يعمل عنده يسأله المشورة.. فهنأه الرجل من قلبه وقال له : لأنها من المتفوقات، فسيصرف لها شهرياً مبلغ من النقود حوالى عشرة جنيهات.. فانكب على يد المحامى يقبلها وقلبه يرقص من الفرح.. وهو يقول لنفسه «ياما أنت كريم يارب».. فرجت، كوثر بنت عاقلة وستستطيع أن تنفق على نفسها وتشترى كتبها...

وأغضى قليلاً ثم عاد يحدث نفسه :

– كتب الطب.... «ياهوه!» أبو إسماعيل قال إن ابنه ينفق عشرات الجنيهات فى شراء هذه الكتب... ومن أين لكوثر هذه العشرات ..؟ ربما تستطيع أن توفر كل قرش من المبلغ وتدبر أمورها...

وهز رأسه عدة مرات وهو يقول :

– كوثر عقلها يزن بلداً.. أنا أدرى بها.. لن تكلفنى شىء.. ربما ساعدتنى أيضا.. لا لا أريدها أن تساعدنى.. الله يعينها وتنهض بملابسها وكتبها.. طبعاً الكلية تحتاج لملابس ومواصلات...

وطأطأ رأسه هما وعاد يغمغم.

– ليتها لا تفكر فى كلية الطب هذه.. هل استطيع أن أقول لها ذلك ؟. كلا . كلا . لا يمكننى أن «أكسر بخاطرها»، وهى تسعى منذ صغرها وتحلم بها.. وبعد أن تحصل على كل هذا المجموع أقول لها نحن «ناس غلابة» لا نتحمل أعباء كلية الطب... «ده عمر ياناس»

سبع سنوات كدح.. وياعالم.. هناك كليات أخرى مدتها أربع سنوات لماذا لا تفكر في الالتحاق بإحداها؟.. وجنيهات الإعانة التى سيصرفونها لا تنفق منها على كل احتياجاتها.. وأربع سنوات غير سبع سنوات.. فقط من يستطيع أن يقول لها ذلك؟

وعاد والدها مهموماً إلى البيت، فإذا بكوثر تقابله والفرح يكاد يخرجها من أهابها، وتطوق رقبته صائحة :

- بابا ، بعد باكر ستذهب معى لاستلام الاستمارة التى سأكتب فيها الرغبات.. لابد أن تأخذ إجازة لأنى لا أعرف الطريق بمفردى..

ورفعت ذراعيها إلى أعلى وهى تصيح:

- كلية الطب.. كلية الطب.. أول رغبة. بل الرغبة الوحيدة..

ونظر والدها الى أمها التى أمسكت نفسها بجهد كى لا «تفقع» زغرودة لأن الساعة كانت قد شارفت على الحادية عشرة ليلاً..

وسلم والدها «أبو محمد» أمره لله وسكت.. ولم تلاحظ كوثر سهومه واكفهراره من شدة فرحتها، وهى التى كانت تسرع لنجدته إذا ما رأته يوما ساكتاً أو مهموماً..

وفى صباح يوم الذهاب قامت مبكرة، وأعدت نفسها على قدر استطاعتها.. وذهبت مع والدها..

وكانت صدمتها فوق احتمالها.. فقد رأت عالماً آخر.. عالماً لم تر مثله عينها من قبل.. عالماً غريباً.. غريباً.. كل نظرة فيه تصدم

عينها.. لقد رأت فتيات من كل لون وصنف.. متفرقات وجماعات.. رأتهن عند مكتب التنسيق.

لم يلفت نظرها قط الفقيرات من مثيلاتها.. بل لم تر من فى مثل ملابسها وشكلها.. بل اتسعت حدقتاها وهى ترقب راكبات السيارات من كل طراز.. والمترجلات أيضا.. يرتدين أفخر الثياب، متزينات متجملات.. كنجمات التليفزيون سواء بسواء..! شعورهن مصففة، وأظافرهن مطلية بلون الدماء!.. وكل شىء فيهن يبرق بريقاً أخاذاً.!.

أين موضعها هى وسط هؤلاء؟!

وراعها طريقة أحاديثهن وضحكاتهن المجلجلة، غير آبهات لشىء كأنهن ولدن وترعرعن فى هذا المكان الذى ترهبه كل الرهبة وتقدم رجلاً وتؤخر أخرى وهى تمشى كأنما ستقع على الأرض من فرط رعبها..

وتقدم والدها ببدلته الصفراء يجرها جراً من يدها، ليتسلم الاستمارة.. ولا يرى ما أصاب ابنته من ذعر لهذا العالم الجديد الذى لم تر مثله حتى وصلت الى هذه السن.. فهى لم تخرج من الحارة إلا إلى المدرسة التى لا تبعد عن بيتهم سوى شارع واحد.. وهى لم تذهب طوال عمرها إلى سينما أو حتى نزلت إلى شارع ٢٦ يوليو..! بل أحيانا.. وأحيانا قليلة جداً.. فى الإجازات مثلا، كانت تذهب الى صاحبتها «هدى» تدعوها لترى فيلماً فى التليفزيون

الأبيض والأسود الذى اشتراه لهم شقيقها حينما ذهب يعمل ببلد عربى، وكان كل ظنها أن هذه الأفلام ليس لها أى أصل من الحقيقة..

أما وقد رأت اليوم ما رأت.. أما وقد وقعت عينها على هذا الهول..! فقد أحست أنها لم تعش.. لم تعش قط .. ! لقد كانت تدب على الأرض فقط ،كدابة.. لا تفقه من الحياة شيئا.. فى مدرستها، وفى بيتها.. بل فى حارتهم.. دواب.. الكل دواب.. لا يعرفون معنى الحياة..

وعادت مع والدها إلى البيت. فتاة أخرى.. فقدت كل القناعة. وهدوء النفس.. وحب الحياة.. فقدت كل شىء.. حتى إنسانيتها... أحست أنها لا شىء.. كل ما حولها يتعسها.. يشقيها..

كلية الطب كانت حلم عمرها.. قالوا المجموع.. قالت «مقدور عليه بالاجتهاد والاستماتة».. أما هذا المهرجان الصاخب الفاخر الذى رأته، فلا قدرة لمثلها عليه... هيهات. ومسحت دمعة شيعت بها أمل عمرها وهى تغمغم «ويتحدثون دائماً عن تكافؤ الفرص»!..

ووجدت أمها تتلقفها بين ذراعيها وهى تريها قماشاً ملوناً كانت تدخره كسوة لأريكة تزهو بها فى البهو، ولكنها وجدته جميلا بورداته الكبيرة الحمراء ففضلت أن تحكيه ثوباص لها تزهو به وسط الطالبات فى كلية الطب...

وتفاقم همها وطغى على كيانها كله.. وقلبت شفتها السفلى بمرارة وهى تنظر إلى أمها ثم إلى أبيها الواقف مشدوداً لحالتها.. وقالت :

- لن أدخل كلية الطب... لقد غيرت رأيى!

فقال والدها بعجب :

- أى كلية إذن ستدخلين يا ابنتى؟

فأجابته والحزن يقطر من كلماتها :

- لقد سمعت من الطالبات أن كلية التربية مدتها أربع سنوات وتلحق الفتاة بالعمل فى مدرسة بمجرد تخرجها.. سألتحق بهذه الكلية..

وكتم والدها فرحته، لسماع قولها هذا حتى لا يجرحها، أما أمها فنظرت إليها مذعورة وصاحت :

- لماذا ؟ لماذا يا ابنتى؟ أأنت أقل من الدكتور أنوار ؟... أنت أجمل منها وأميز!!

فنظرت إلى أمها بحسرة وقالت :

- هذا فى نظرك أنت فقط...

وتركتهما إلى حجرتها لتفرج عن دموعها التى احتجزتها الساعات الطوال.

رجل صعب

المستشفى الخاص على قدم وساق.. الكل يقوم بعمله على أكمل وجه.. الممرضات يضعن الطواقى الصغيرة البيضاء على رءوسهن بحيث لا تبدو شعرة واحدة على جباههن.. ولا خصلة تطل من خلف... يجب أن يوضع الشعر كله داخل الطاقية بحيث يبدو جميعاً على نسق واحد، لا مناظرة بين واحدة وأخرى.. الكل سواسية فى المعطف الأبيض والحذاء الأبيض، والجورب الطويل الأبيض.. والصوت الخفيض.. والهدوء تام فى أرجاء المستشفى عامة...

هكذا كانت الأوامر الصارمة التى لا تقبل الجدل، لصاحب المستشفى ومديره العام وأكبر جراحيه...

قراقوش حضر.. قراقوش ذهب.. قراقوش قال ... قراقوش أمر..!

كانت هذه الكلمة تتداول بين الممرضات والعاملات والعاملين.. فى صوت هامس لا يكاد يسمع.. كناية عن الدكتور «أحمد رفعت» المدير

العام، فخطواته العسكرية، ووجهه الصارم العابس.. وصوته الجهورى الخشن.. يدفع الرعب إلى قلوبهم خاصة إذا كان هناك أى مأخذ على أحد فهنا الطامة التى تشيب لها الولدان...

فقد سهى يوماً على إحدى الممرضات أن تقلم أظافرها بحيث كانت أطول مما سمح لهن به، ولسوء حظها «الدكر»! كانت تعطى حقنة لمريض حينا «طب» الدكتور أحمد «كالقضاء المستعجل، ومعه كبيرة الممرضات، ليعود المريض، وإذا به يلمح أصابعها وهى تغرس الحقنة فى إلية المريض الراقد على السرير...

«وانهد» المستشفى على من فيه : من أول رئيسة الحكيمات حتى «هنومة» بنت السابعة عشر التى تغسل الأطباق فى المطبخ وتقدم أحيانا صينية الطعام لبعض الحجرات حينما يحتاج لها الأمر...

وهنومة فتاة رقيقة تعمل منذ يفاعتها لتعول أمها العمياء، لا تعرف لها أهلا ولا أقارب ولا أبا.. لأنها لم تره! فقد قيل إنه ترك أمها وهى فى بطنها، وقيل لها إنه تركها حينما علم أنها أنجبت بنتاً وكان يريد ولداً..! وقيل أشياء وأشياء لا تدرى هنومة ما الصحيح منها وما الباطل؟

وهنومة منذ وعت الحياة وهى لا ترى أمها إلا باكية.. أينما رأتها: جالسة، أو أمام الموقد، أو راقدة بجانبها، وأدركت أنها كانت تحب زوجها، وإنها روعت لتركه لها.. ولعلها تركت أهلها وهربت معه

لتتزوجه - كما قالت لها يوما ابنة الجيران - ولم تستطع أن ترجع إليهم بعد أن تركها، فأدركتها علة فى عينيها لم تلبث أن أودت بهما.. وكانت هنومة فى حوالى السابعة من عمرها، ومنذ ذلك الوقت وهى تعمل! أخذتها سيدة كريمة لتلاعب ابنها الطفل وتعود آخر النهار إلى أمها بما تعطيها من زاد يكفى الأم خلال يومها الثانى...

وكانت السيدة عطوفة حانية على الصغيرة المسكينة، وهى تراها رغم كثرة ما تعطيها من طعام، لا شهية لها مثل سائر الأطفال.. دائما مرهقة ترغب فى النوم، فأسرعت بعرضها على أحد الأطباء المختصين، فإذا به يكتشف أنها مصابة بمرض السكر...

وعملت السيدة وسعها لتداوى العليلة من دائها العضال وقد منعتها تماماً عن أكل الحلوى التى كانت تفضلها عن أى طعام آخر وكانت السيدة تعطيها لها بكثرة ظنا منها أن الحلوى تعطيها طاقة وتزيد من وزنها...

ومضت سنوات وكبرت خلالها هنومة وعرفت كثيراً عن دائها، وحاولت قدر استطاعتها أن تتجنب ما يضرها، وتعلمت كيف تعطى لنفسها حقنة الأنسولين.

ولما بلغت هنومة السادسة عشر، وأصبحت شابة حلوة، وتعلمت القراءة على يد ابن السيدة الشاب.. رأت أن تلحقها بعمل فى المستشفى الذى يعمل فيه زوجها الطبيب بعض الوقت.. وفى هذا

المستشفى تستطيع أن تجد العلاج والرعاية بالمجان...

وحين زارهم الدكتور «أحمد رفعت» أخبرته بقصتها فرحب كثيراً أن تعمل فى مطبخ المستشفى تساعد فى غسيل الأطباق.. ولن تجد فى ذلك عناء.. وسيعطيها أجرا يكفيها وأمها الضريرة لتعيشا حياة كريمة، وستعمل نصف يوم فقط ..

ومنذ اليوم الأول لالتحاق هنومة بالمستشفى وهى ترتجف رعباً من الدكتور أحمد رفعت لكثرة ما سمعته عنه ممن حولها، خصوصاً أنه لم يحدث يوماً أن وجه كلمة إليها، فما تكاد تلمح ظله من بعيد حتى تختفى فى ركن منزو عن عينيه...

أما قراقوش كما كانوا يطلقون عليه من حولها ، فلم يكن قد يسأل عنها، وإنما كان يراقبها دون أن تدرى، ويوصى الطبيب المختص أن يرعاها ويعنى بها عناية خاصة، لأنها تعول أما ضريرة وهى بحالتها تلك.. ولو علمت هنومة أن عينيه تراقبانها عن بعد لماتت «فى جلدها» رعباً.. فكثيراً ما كانت تسمع صوته يهدر فى البهو الفسيح بين الحجرات، وتجد المرضات يجرين يميناً وشمالاً، وهو واقف كالطود.. ثم يتحول الجميع إلى الطابق الأول حيث حجرته، وبعد ذلك تسمع منهن كيف خصم من هذه خمسة جنيهات، ومن أخرى عشرة.. وتتعجب لماذا يستمرن فى العمل معه وهو بهذه القسوة ؟!

ويأتيها الجواب أنه يعطيهن ضعف المرتبات التي تعطى في أي مستشفى آخر مهما كانت درجته.. ويكافئ المجتهدات النشطات مكافآت سخية، ويحسن معاملتهن.. أما من تهمل، أو تكسر القانون المكتوب بأحرف بارزة على لوح معلق على الحائط في حجرة الممرضات، فعقابها عنده لا يغتفر، وأحيانا يصل إلى الطرد إذا عاودت ارتكاب الممنوع...

وتسأل هنومة وهي فاغرة الفم :

– ولكن لماذا هذه الفظاظة ؟ ألا يستطيع أن يكون أقل خشونة من ذلك؟ يخيل إلى أن صوته يرج المستشفى رجاً.. يبدو أنه رجل قاس...

وترد إحدى الممرضات :

– إن ذلك يحدث معنا نحن العاملين رجالاً ونساء فقط ، ولكن راقبيه وهو مع الأطباء في حجرتهم، منتهى الظرف واللطف...

وتقول ثانية :

– تصوري أنني سمعته يلقي نكتة وصوت ضحكاته تجلجل من خلف باب الحجرة المغلقة .!

فتصيح ثالثة :

– بيني وبينكن، لقد قيل لي من أناس يعرفونه حق المعرفة إنه بار بالفقراء، وأنه كثيرا ما يجري جراحات لهم بالمجان .! هذا الذي لا

يستطيع إجراء الجراحات عنده إلا أغنى الأغنياء...

وسرحت هنومة تكلم نفسها وقلبها يدق بعنف : ليته يجرى جراحة لأمى تعيد إليها بصرها.. أيمكن هذا ؟..

لكن إحداهن أخرجتها من تمنياتها وهى تقول :

– تردن أن تقلن إنه طيب القلب..، يخاف الله.. لماذا إذن لا يخافه فينا نحن الضعيفات؟ ألسنا فقيرات ؟.

فردت زميلتها :

– إن العمل عنده عمل، أليس كذلك ؟ ثم كم من مرة أعطاك أنت بالذات علاوات لأنك منضبطة فى عملك ، أتنكرين ذلك ؟ إنه لا يجازى سوى المهملات...

ومصمصة إحداهن شفتيها وقالت :

– عجبى! تشهدين له وهو اليوم قد خصم منك خمسة جنيهات.

فأجابتها :

– لأنى أهملت فعلاً.. ولكنه كان أقسى مما يجب.

وانهمرت دموعها...

وانكسر شىء فى قلب هنومة.. فهى تحب الدكتور أحمد رفعت بقدر ما تخافه .. وتتمنى من أعماقها لو يحبه الجميع ولا يطلقون عليه قراقوش..

والدكتور أحمد رفعت إنسان نشط ، شديد الالتزام بعمله،

منضبط في مواعيده الى أقصى حد. عاش في الخارج أعواماً كثيرة.. وخبر معظم مستشفيات العالم المتمدين، وعمل بها، وكان يعمل في لندن جراحاً، وذاع صيته، وملأت شهرته الآفاق، وكان يقصده أغنى أغنياء العالم العربي، ويفضله الأجانب عن بعض أطبائهم.. لكنه ترك كل هذا «الهيلمان» وفضل الرجوع إلى بلده ليخدم وطنه بعلمه وعبقريته...

وما أن وصل من الخارج حتى بنى هذه المستشفى على أحدث طراز وأثثه بأفخر الرياش، وجعل الخدمة فيه على غرار ما لمسه وعاشه في أكبر مستشفيات الخارج، ولماذا لا يكون مثلهم ؟ بماذا يفضلوننا إلا بالانضباط والسلوك الحسن والعلم ؟ وفي استطاعته أن يوفر كل ذلك فلا يقبل في مستشفاه الأكل من تتوفر فيها كل هذه المميزات..

وقد استطاع - بعد جهد مضن - أن يجعل للمستشفى هيئة تمريض منتقاه أقرب - بقدر الإمكان - إلى من رآهن في الخارج...

كان في أول الأمر، يشرف على كل شيء بنفسه، وبعد أن استتب الأمر خصص لكل عمل من تشرف عليه، واطمأنت نفسه، إلا أنه كان يفاجئنهن بين حين وأخر ليتأكد أن كل شيء يسير في مجراه الصحيح...

لم تكن غرف المستشفى جميعها تخلو من نزيل، فقد كان لديه

أبرع الأطباء المختصين فى جميع فروع الطب.. ولم يكن يتهاون أيضا مع أحدهم إذا أخطأ...

وذاع صيته فى القطر كله وفى الأقطار الشقيقة، ولكنه اتهم باتهامات شنيعة، فمبجرد ذكر اسمه تجد من يتطوع ليقول إنه يعبد المال، وأنه جزار بلا قلب... وأنه لا يعالج سوى الأغنياء، ويعتذر للفقراء حتى ولو دفعوا له كل ما يملكون لإيمانهم به، ولا يتنازل مهما استعطفوه...

كل هذه الاتهامات كانت تكال له ممن يعرفه ومن لا يعرفه، ولكن الكل يجمع على أنه أبرع جراح فى تخصصه، وربما أبرع جراح فى العالم كله...

والمسكين غافل عن كل ما يقال عنه...

حتى كان يوماً ، سعى إليه رجل معروف بعلمه وفضله، وبعد أن أجرى عليه كشفاً مركزاً أخبره أن لابد له من جراحة فوراً، فما كان من الرجل إلا أن أخبره أن ما معه لا يكفى إلا لتغطية نفقات المستشفى، أما أجره هو فليس فى استطاعته بأكمله لأنه سمع عنه أنه يتعامل بالآلاف...

ولشد ما كانت دهشة الرجل حينما نظر إليه الدكتور أحمد رأفت وقال له بكل بساطة :

- ما هذا الكلام يارجل؟ من قال لك هذا؟ إن المستشفى ليس

ملكى بمفردى، فإذا كنت تستطيع أن تدفع أجر الإقامة فلا عليك ما تدفعه لى، أى مبلغ مقبول منك لأنك فى حاجة عاجلة للجراحة... ويكفى أن حياتك فيها نفع للناس...

وخلال علاجه، وجد الرجل من معاملة هذا الطبيب لمرضاه ما جعله يظن أنه طبيب آخر غير الذى يتقولون به عليه، ويصفونه به، فهو إنسان يحمل قلباً من ذهب، معاملته تتصف بالطيبة المغلفة بالخشونة لا يفهمها إلا رجل يدرك حقاً معادن الناس...

وفى ذات مساء، وكان يعوده فى حجرته، وبعد أن تبادلا حديثاً ودياً، فتح الباب وإذا به يراه ينحنى على الأرض.. ويلملم قطعاً صغيرة من شظايا كوب مهشم، وضعها فى كفه، والرجل يعجب من قيامه بهذا العمل بنفسه وسمعه يقول :

- مصيبة !

فسأله :

- ماذا تعنى يا صديقى ؟

فأجابه :

- البنت هنومة التى تعمل فى المطبخ أعيت الجميع الحيلة لاقناعها ألا تمشى حافية القدمين، ومن الممكن جداً أن تدخل إحدى هذه الشظايا الصغيرة فى قدمها.

فسأله المريض فى دهشة :

- وكيف تبقى مع شدتك ودقتك عاملة تمشى حافية القدمين فى مستشفاك ؟

فلمعت عينا «قراقوش» الصارمتان خلف نظارته، ثم أغضى واحمر وجهه قليلا وقال باقتضاب :

- إنها مريضة بالسكر منذ طفولتها، وتعول أمها العمياء .

أما لهذا الليل من آخر ؟

مشكلتي في داخلي.. أعيشها بكل أبعادها.. لا أجرؤ على التحدث عنها حتى لأقرب المقربين إلي.. لا أريد شماتة.. ولا يروقني أن أبدو ضعيفة.. فطول عمري أنا صاحبة القرار في كل أموري.. لذلك أتألم ليل نهار.. بل أفزع وأنا أفكر في أمر مستقبلي.. مستقبلي الذي أريد أن أصنعه بنفسي، كما صنعت ماضي بمحض إرادتي.. صممت.. وعزمت.. رغم المعارضة الشديدة التي وجدتها من كل من حولي، خصوصاً والدي، واخترت.. وبكامل الاقتناع أتممت الزواج. والآن؟.. ماذا حدث؟...

رغم جمالي وثقافتي وعلمي الذي وصلت فيه إلى درجة عالية مع مرتبة الشرف.. لم أجد من يملأ فراغ حياتي العاطفية.. فكل من حولي من الزملاء والرجال، يبدو أقزاماً بجانب سعة مداركي، وعمق تفكيري، وفراستي التي أبداً لا تخيب... وقد كنت المرفأ الذي يسعى إليه كل من تصادفه مشكلة في حياته.. ويغوص في أعماق الشاكي

أدفعه - دون أن يدرى - إلى فتح ملف قضيته دون خوف أو احتجاز، بحيث أطلع على دقائق حالته، فأعطيه الحل الذى لابد وأن يريحه من متاعبه.. ويوصله إلى بر الأمان...

ماذا حدث لى إذن بعد كل ما اتمتع به من هذه الصفات؟! ألعل الإنسان يقف مكتوف اليدين أمام مصيبته الشخصية لا يستطيع لها حلاً مهما أولىّ من رجاحة عقل، وتميز فى الأفكار مع الآخرين ؟!

لست وربى إنسانة مغرورة.. لا ولا إنسانة ترفض كل ما يخالفها من أفكار.. ولكنى إنسانة متروية فيما اتخذه من قرارات، اتخذها وأنا مفتوحة العينين، واعية لكل أبعادها.. غير واقعة تحت تأثير المظهر أو المال، أو المركز .. المخبر هو الذى يهمنى، ويشدنى، ويفتح شهيتى لاكتشافه دون تعجل، بل فى أناة وصبر...

وأول ما جذبنى إلى الرجل الذى تقدم لى: نضجه، هيبته، احترامه لنفسه، بريق الذكاء المتوقد فى مقلتيه ...

تعلقت به، أحببته حباً لم أعهده فى نفسى.. رحت أدور فى فلكه كالكوكب السيار... وكان قد مضى على وفاة والدى أكثر من عام، ووقفت والدتى ترجونى أن أتروى، فالرجل يكبرنى بحوالى اثنين وعشرين عاما، والمتقدمون لى فى مراكز طيبة، ويقاربوننى سنا.. وأنا فى السابعة والعشرين.. ولكنى أصررت، وكانت سعادتى لا تدانيها سعادة فى العالم كله.. لم أحفل - والله - بمركزه الضخم.. ولا

بثروته الواسعة.. دائما انبهارى كله كان ناتجا عن إحساسى - الذى لا يخيب - بشخصيته الفذة..

سبع سنوات زواج عشتها قصة حب رائعة مع هذا الرجل سبع سنوات من العسل المصفى وأنا اكتشف فيه كل يوم ما يعزز إحساسى بسديد اختيارى.. أنجبت خلالها طفلين : خمس وثلاث سنوات.. سبع سنوات وهو يخصص من كل عام ثلاثة أشهر نطوف خلالها بمدن أوربا، وأمريكا، واليابان، والدول الشرقية... لم يترك مكاناً إلا وأرانى إياه، مع شرح واف لكل ما تقع أعيننا عليه، إنسان متعدد الجوانب فى كل شيء.. إنسان رائع، ممتاز إلى أقصى حدود الامتياز..

كل يوم يمر بى معه ازداد اقتناعاً به.. كل ساعة أحمد ربى أننى أحسنت الاختيار، وأصبح ولداى قرة عينى.. لم يدعنى أعمل، لم ير أن يتعبنى بأى مجهود مهما كان ضئيلاً.. لم يجبرنى، بل خيرنى، وتركنى لرأيى الشخصى.. ووافقت ، دون ضغط منه... ووجدت نفسى بين ولدى أربيهما التربية السليمة التى أريدها مع وجود المربية الفيتنامية التى أحضرها لهما.. كان رأيى دائماً يحبذ تفرغ الأم لأطفالها تفرغاً كاملاً حتى سن التحاقهم بالحضانة، أى فى سن الثلاث سنوات...

ما كان يجمعنا دائما تقابل أفكارنا، وانسجامنا التام بكل ما يعن

لنا من خواطر.. وفرحتنا الغامرة بالحياة وبطفلينا.. وإحساسنا بشبابنا المتدفق الذى يهيىء لنا كل أنواع المتعة.. ولقاءاتنا الدائمة مع الأصدقاء من الجنسين فى حفلات شهرية قاصرة على المقربين منهم، الذين تتشابه ميولهم وأفكارهم معنا... وإن اختلفت فهى إلى نقاش لطيف يسوده المودة والانسجام..

وفجأة، ودون سابق إنذار.. وزوجى فى قمة قوته.. إذا به يقع مريضاً مرضاً حار فيه الأطباء وظللنا أشهراً طوالاً نتردد على كبار الأطباء فى كل التخصصات.. ومن حين لآخر نعقد له «كونسلتو» والشهور تمر وحالته تتراوح بين التقدم والتاخر.. وأنا بجانبه أدور فى دوامة الأفكار المرعبة، فبعد أن كان يتفجر شباباً وأناقة وأبهة. إذا به وقد تحول إلى رجل عليل لا يستطيع مباشرة أعماله التى تراكمت على شريكه وزميل عمره ولا ندرى إلى متى يطول هذا الحال...

وتركنا الولدين مع والدتى وشددنا الرحال إلى لندن لعرضه على أشهر الأطباء هناك، ليس ذلك لأنه لا يوجد أطباء ممتازون فى مصر، بل لأن هؤلاء الأطباء أنفسهم حبذوا سفره، ولم أكن أدرى لماذا؟...

وفى لندن اكتشف أنه به مرضاً لا أمل للشفاء منه!. كم من السنوات سيعيش بهذا المرض؟ ربما أيضا عشرون عاماً ! .. فالمرض جديد لم ينتشر بعد، والأبحاث للكشف عن مصدره وعلاجه

على قدم وساق...

وعدنا إلى مصر بعد شهور من المعاناة التى كادت تفقدنى عقلى... فزوجى الحبيب ينطفى شيئا فشيئاً أمام عينى ولا أستطيع لهذه الكارثة دفعاً.. وهو - رغم كل ما يعانى - يضحك فى وجهى، ويهون على، ويردد أقاويل الأطباء أن الأمل كبير فى ايجاد علاج لهذا الداء وسيعود أكثر شبابا مما كان....

وتمضى سنوات خمس... سنوات خمس والمرض لم يزل بجبروته يرتع فى جسم زوجى... والأنباء عن اكتشاف الدواء لا زالت فى الاكتشاف... وهو يتماسك ... وصديق عمره، وشريكه فى كل أعماله، يتردد على البيت كل يوم ليتشاورا فى كل صغيرة وكبيرة.. وليطمئن على صحته، ويكون فى خدمتى لأى طلب يرانى فى حاجة إليه...

آه من كلمة يكون فى خدمتى هذه...

ضعيف هو الإنسان حينما يبتلى بما يعجز عن احتماله، فيقع فريسة همومه يتناوبه اليأس... ويصيبه الاكتئاب، وهو يرى حياته ولا بارقة أمل تدفعه إلى التمسك بها...

إننى مازلت شابة، لكن الخوف يعترينى ويشل حركتى، ويجعلنى أتلفت حولى كالمذعورة... فزوجى الذى كان يحتوينى بالحب والإعزاز، ولا يرد لى مطلباً... صار إنساناً آخر.. أنكر منه عدم المبالاة، والاستهانة بمشاعرى، ونعتى دائماً بالمراهقة.. مع أننى مازلت عاقلة،

أزن الأمور قبل أن أقدم على فعلها...

وصديق عمره يناوشنى بالنظرات أحيانا، وأحياناً أخرى بالكلمات التى تحمل معنيين!.. وأنا أتغافل واختفى من أمامه لأمنع الكارثة... فإذا سنحت لى فرصة الجلوس مع زوجى فى خلوة، وأردت أن أنبهه إلى شىء مما يحدث، ينكر منى هذه الأراجيف - كما يقول - ويغضب، ويتهمنى بالتفكير فى أمور غير لائقة بمن فى مثل سنى! مع أننى لم أتعد التاسعة والثلاثين.. السن الخطرة... السن التى أحياناً ما تهزم أشد المحصنات... ويطلب منى أن أكون على قدر المسئولية...

والعمر يتقدم بى.. وشبابى يذوى تحت ثقل الهموم وعدم الفهم اللذين اصطلى بهما... والغواية تلاحقنى كل يوم... والكلمات المعسولة تتدفق من فم الصديق كطلقات مدفع يمزق جسدى ويشعل فيه بركاناً من النيران...

ورغم كل ما أعيش فيه، لازلت أحمل لزوجى كل احترام وتقدير، وأخاف عليه خوفى على طفل من أطفالى...

لكن، آه من لكن... أحيانا أفكر فى الانفصال بكل هدوء، لخوفى من ضعفى البشرى... وخوفى من قطار العمر الذى يجرى ويأخذ شبابى معه، فأمسى ولا شباب ولا حياة لى، ولا أحد يفكر فى الزواج منى...

أعلم أن كلماتى هذه ستصدم كل من يعرفنى... بل ستصدم المحترمين الأجلاء من الناس، ويصفوننى بالعقوق، وقلة المبالاة، وأشياء أخرى فظيعة لا أستطيع التفوه بها...

إن مشكلتى قاصمة... لا أدرى إلى متى ستعيش معى؟ وقلبى مغلق عليها... لم أفكر، ولن أفكر ما عشت فى البوح بها لأحد... كما لن تنفرج شفتاى عنها حتى أوضع فى لحدى...

أعلم أن والدتى هى الصدر الحنون الذى يتقبل كلماتى بحب، ولكن أتراجع عن التحدث معها، فأنا أقرأ فى عينيها دوماً نظرات الأسى والملام...

أننى إنسانة قبل كل شىء. أجد من واجبى رعاية زوجى الذى اخترته يوماً بمحض إرادتى... وعشت معه سنوات سبعا اعتبرها عمرى كله...

فهل سأستطيع مواجهة الحياة، ومواجهة الإغراء، بجسد عرف مباهج الحياة، وأترع منها حتى الثمالة... ثم منعت عنه منعاً كلياً...؟

ألم أقل إننى أعيش المشكلة بكل أبعادها بمفردى... عبؤها كله على كتفى .. ومرارتها فى حلقى... والحياة تسير.. وأنا فى كل مطلع شمس أحنى ظهرى للكوارث من كل نوع.. وانتظر، لعل الانتظار له آخر...

بحر من الحنان

بعد غياب شهر عادت إلى البيت، وكأى سيدة جعلت تعبث فى كل مكان وكل شىء، تنسق هذا وتضع ذلك فى محله، وتفتح الحقائب وتخرج ما بجوفها لترتبه فى موضعه، وتضع الغسيل المتسخ فى سبت الغسيل...

أخذتها دوامة التنسيق والتنظيف السهل حتى يأتى الشغال فى الظهيرة ليقلب البيت رأسه على عقبه.. أما زوجها فقد خلع ملابسه وأخذ حماما وجلس كعادته وفى يده كتاب لأنه لا يدرى شيئا من هذه الأمور التى تقوم بها هى .

وفجأة وخلال مجيئها ورواحها رن جرس التليفون فرفعت المسماع وإذا به كالعادة يطن (مشغول!) فوضعت السماعة وسرح ذهنها إلى بعيد..

لقد وعدت صديقتها «همت» أن تزورها قبل سفرها عندما اتصلت بها لتخبرها أنها مريضة ولا تغادر الفراش.. لكنها - ولظروف خارجة عن إرادتها - سافرت دون أن تسأل عنها ولو بالتليفون!!

وراحت تعنف نفسها، فهذه الصديقة قريبة إلى قلبها جدا وكان صوتها يخيم عليه الحزن - على غير عادتها - وهى تخبرها بما أصابها وكأنما تلومها على عدم سؤالها عنها هذه المدة الطويلة..

تبا لها من قليلة الخير!! بيد أنها أصبحت هذه الأيام تنسى كثيرا، حتى أنها نسيت تماما الحديث الذى دار بينهما ووعدها الأكيد لها بزيارتها ، نسيت فى دوامة الحياة التى لفتها وجعلتها حتى لا ترفع المسماع وتسأل عنها قبل سفرها...

وبدون أن تفكر جلست أمام التليفون وطلبت رقمها وهى لا تدرى بماذا ستعتذر لها بعد هذه الغيبة الطويلة، وكعادة التليفون أحجم عن أن يستجيب لندائها...

ووضعت المسماع فى يدها وأخذت تخطط عليه بأصابع يدها الأخرى وهى تسترجع حياة هذه الصديقة العطوف والأم المثالية لكن بلا أمومة...

عاشت حياتها تربى ابن أختها الصغرى، فقد تركته لها ولم يتم الأسبوع من عمره.. ولم تنجب هى، وماتت أختها وهى تضعه بين ذراعيها وتستحلفها أن تعتبره ابنا لها، ومنذ تلك اللحظة نزل حب الطفل فى قلبها كأنما هو طفلها من أحشائها.. ولم تخيب ظن أختها أخذته فى حضنها أغدقت عليه فى كل شىء دون أن تفسده بالتدليل الشديد...

كان يناديها ماما، وينادى زوجها بابا، وكان زوجها - والحق يقال - لا يقل عنها حبا للطفل الذى أعطاه له الله عوضا عن طفل من صلبه...

وكبر الصغير وهو لا يعرف أما أو أبا غيرهما بعد أن تركه أبوه الحقيقى وتزوج بامرأة رفضت أن تربيه حينما عرض عليها ذلك.. لكن همت استعطفته أن يترك لها الصغير ولن تكلفه مليما واحدا فى تربيته، وأن حدث وطلبت منه شيئا فى أى يوم من الأيام، فله أن يأخذه منها فورا.

وكانت همت تملك قطعة أرض كبيرة من أجود الأراضى الزراعية هى كل ميراثها عن والديها، فباعتها واشترت قطعة أرض للبناء تقيم فوقها يوما شقة لها مع زوجها وشقة لابنها هذا حينما يتخرج ويتزوج.!

فكرت فى ذلك والطفل لم يتعد عامه الثانى بعد، لأنها صممت أن تجعله فى حضنها حتى بعد أن يتزوج، وخشيت أن يرفض أهل الزوجة وجود ابنتهم معها فى معيشة واحدة، ففكرت أن تبنى على هذه الأرض فيلا من طابقين تسكن هى وزوجها الطابق الأول والثانى لقرة عينها...

وفعلا ارتفع ثمن الأرض ارتفاعا مهولا خلال هذه السنوات.

وقد اقتطعت مبلغا محترما من ثمن الأرض الزراعية للبناء

وضعته فى البنك على صورة وديعة تأخذها بفوائدها عندما يحين الوقت...

وكبر الطفل وهى ترعاه بقلبها وعينيها، وتوفر له كل أسباب السعادة، ونجح فى دراسته، وكان ابنا بارا بأبيه وأمه المزعومين، عطوفا بهما لا يفعل إلا ما يرضيهما.

وفى سن المراهقة بدأ يسأل عن أبيه وأين هو، وكيف ماتت أمه،

وأحس بحنين نحو الأب القاسى الذى لم يسأل عنه يوما، فأخذته همت وذهبت به لزيارة والده، فإذا بالأب الذى تحيط به شرذمة من أطفاله، يقابله مقابلة الغريب! وإذا بالصغير لا يشعر بأى تعاطف مع هذا الرجل الذى يدعى أنه والده، ولكنه غريب عنه تماما.! أما والده الحقيقى، والده الحانى، فهناك حيث يعيش ... ومن وقتها لم يفكر يوما فى نطق اسمه على فمه، ولو أنه فى شهادة الميلاد مكتوب باسمه..

ونجح فى الثانوية العامة بمجموع يتيح له الالتحاق بكلية مرموقة، وإذا بهمت تقيم له ليلة كبيرة دعت إليها جميع أقرانه وأحضرت له المغنين، وكأنه عريس يزف إلى عروسه..!

لكن كان من حولها يشككونها فيه، ويقولون لها ليس إلى هذه الدرجة يكون الحب! فسيأتى اليوم الذى لا يعرفك فيه وينضم إلى والده، فلا تكونى عاطفية إلى هذا الحد حتى لا تصدمى.. لكنها كانت

تضحك ضحكة فاترة وهى تقول : إنه ابنى وقد ربيته على يدى وأنا أعلم علم اليقين أنه لن يتركنى يوما، بل كلما مرت الأيام يزداد التصاقا بى...

ولم يدر أحد هل كانت تقول هذه الكلمات عن ثقة واعتقاد راسخ بما تقول، ولكنهم كانوا يضحكون منها فى أعماقهم، بينما كانت تنظر إليهم وهى تهز رأسها فى ثقة من صدق حدسها...

والتحق الطالب النجيب بالجامعة، كانت تسهر الليالى بجانبه لا يغمض لها جفن، وفى أيام الامتحانات تعد له القهوة والشاى وتلبى أبسط رغباته، وتحت قدميه تجلس تحيك شيئا، أو تعمل «كروشيه» ستائر ومفارش لبيته الذى سيزف فيه إلى عروسه... وكانت تتقن هذا النوع من العمل اتقانا مدهشا...

وكبر الطفل وأصبح شابا تراوده أحلام الشباب فى صورة زميلة لطيفة له فى الكلية يتكلمان معا، ثم جمعهما حب لم يمنعه عن الانكباب على الدراسة...

ولم يغب عن عينى الأم الفطنة هذا التغير فى أحوال ولدها وهى العليمة بكل صغيرة وكبيرة فى حياته، لم يغب عنها هذا الإقبال الفرح بالحياة، ولكنها لم تفتح فمها وتسأله ، بل تركته هو الذى يقول لها حينما يحين الوقت المناسب...

وفى مستهل العام الجديد، وبعد نجاحه بدرجة جيد جدا، وهى فى

قمة السعادة والفخار به، أخبرها أنه يريد أن يتقدم لزميلة له أحبها قبل أن تخطف من يده...

ولم تكن همت راضية عن هذه الخطبة المبكرة خوفا على دراسته.

ولكنه وعدها أن يكون عند حسن ظنها وأن لا يقل نجاحه عن جيد جدا في السنوات المقبلة، أما زوجها فقد صمم على عدم عمل أى شيء ألا في السنة النهائية، ولما وجد الشاب أن لا فائدة في إقناعه خيرهما أن يذهب ويتزوجها فورا ويعمل بجانب الدراسة ويعيش عند أهلها فهم يرحبون به!...

ولعب الفأر في قلب همت، ماذا لو فعلها فعلا ولم يكن ذلك مجرد تهديد؟ أتستطيع الحياة بدونه؟ لكن ذلك كان كافيا لموافقتهما الكلية دو قيد أو شرط.. وللحق لقد كان ابنا بارا عطوفا بها لا يتحمل مرض أحدهما ويلبى لهما كل ما يريدان من مطالب الحياة...

وأقيمت ليلة جميلة للخطبة في منزل العروس، ولم تسلم همت من مهاجمة الناس لها على كل هذه العجلة، وعلى اطاعته في كل ما يريد.. لكنها لم تأبه لكلمات من حولها وكانت تطيع صوت قلبها...

وبدأت في بناء الفيلا لتكون جاهزة لاستقبال العروسين بعد سنتين!.

وفي تلك الأيام كانت تجلس معها الساعات الطوال تحكى لها عنه وعن تصرفاته معها وزوجها، وأنه أكثر من ابن يخدم والديه، وأن

معدنه طيب كأمه تماما...

وحينما تمت الفيلا كتبتها باسمه ! كما كتبت له كل ما تملكه هى وزوجها ملكا حرا خالصا له منذ الآن !

كم قالوا لها «سيطردكما»، فقالت كلا، لن يفعل ابنى ذلك، وكانت أصدق من الجميع. صدقت نبوءتها فيه إذ حينما مرض والده بالتبنى ترك كل شىء وراح يرعاه ويحر له الأطباء، وينام بجانب سريره ليعطيه الدواء فى ميعاده ، حتى شفى تماما...

كانت همت تلاحظ كل ذلك وتدونه فى قلبها.. وترفع عينيها إلى الله تشكره من أعماقها، لأنه رزقها بهذا الابن البار العطوف...

وبعد تخرجه أقامت له حفل زواج تكلم عنها كل من فى الحى، زفته إلى الفيلا المزدانة بالأنوار وكان أول دخولهم فى هذا اليوم.. يوم عرسه، بعد أن أكملت تأثيث شقته على أكمل وجه... حتى أنها باعت حليها - وهى آخر ما تملك لتجعل من مسكنه آية فى الذوق والفخامة وعجائز الفرح «يتغامزون على بلاهتها ويتوقعن لها الويل والوبال...

إيه يا همت، لكم سهرت الليالى وتحملت التعب والنصب فى الوقوف أمام البناءين لتكون الفيلا مستعدة لاستقبال ولدك الحبيب وعروسه، والحق أنه لم يدخر وسعا بعد ذلك فى إدخال السعادة إلى قلبها...

وأنجب لها البنات والبنين، فعاشت لتربيهم بينما هو وزوجته فى عملهما...

قال لها من حولها يجب أن تترك الزوجة عملها لتربى أبناءها وترتاحين أنت فى هذه السن، فلم تعودى تتحملين هذا التعب فى تربية الأبناء، وكفاك ما لاقيته فى تربيته هو !..

لكنها قالت أنا سعيدة أن أربى أبناءه ولو أنه وزوجته فى غير حاجة إلى النقود إلا أنى أرى سعادتى تكمل فى تربية أطفاله وشبابى يعود إلى...

ومات زوجها، وكان آخر ما نطق به الدعاء لابنه المتبنى من قلبه، وهو يمسك بيده بين يديه ويوصيه بأمه خيرا...

وتنهدت من أعماقها وهى تسمع التليفون تعود إليه الحرارة بين يديها وقالت :

– سأزورك يا همت واستغفرك عن هذا الانقطاع، وستقبلين اعتذارى لأن قلبك كبير ونفسك صافية ولا تحملين ضغنا لإنسان...

وطلبت الرقم وانتظرت.

وردت عليها الابنة الكبرى، وعجبت ففى ذلك الوقت من النهار كانت هى دائما التى ترد.. لقد غاب عن ذهنها أن اليوم يوم عطلة المدارس..

وسألتها عن جدتها وطلبت أن توصلها بها، فقالت الفتاة بصوت باك :

– ألا تعلمين ؟ لقد ماتت منذ يومين..

وسقطت السماعة من يدها وهى تجهش بالبكاء، فحضر زوجها على صوت نحيبها العالى، ولما عرف اكتسى وجهه بالحزن والأسى، وشردت عيناه الغائمتان إلى بعيد كمن يسترجع تاريخا طويلا فذا ثم غمغم :

– كانت بحرا من الحنان...

ولد يارب ولد...

تعالت الزغاريد تدوى فى الحارة... وقد بدت شقة جابر أفندى - الموظف الصغير فى المحفوظات - زائطة تعج بسكان الحارة جميعا، وأهل بلدته الذين قدموا خصيصاً من أقاصى الصعيد. والسبب أن جابر أفندى أنجب الولد...

خمسة عشر عاما من الزواج، أنجب خلالها خمس بنات... وفى كل مرة تحمل زوجته، يرفع يده نحو السماء ويطلب من الله بضراعة، مع كل صلاة، أن تنجب هذه المرة الولد...

ولد يارب ولد... تنام وتستيقظ أم هدى متمنية بقلب واجف أن يرزقها الله هذه المرة بولد... لكى تخرس ألسنة أهل زوجها الشامتين فيها، صائحين فى كل مرة تنجب فتاة وهم يضعون أيديهم على أفواههم ليدرأوا مصمصة الشفاة، والتمتمة بكلمات الإشفاق والحسرة المموهتين ورغبتهن فى تزويجه من أخرى لتنجب له الولد!!

واليوم أسبوع سيد، أول ابن لجابر بعد البنات الخمس... وقد اختار له هذا الاسم ليصبح سيد الرجال... أنجبه من زوجته وأم

بناته «حسنية» أم هدى...

جلس جابر فى صالة الدار يتقبل التهانى من أفراد أسرته - القادمين من الصعيد، وأكواب الشراب تدور عليهم مرة ومرتين وثلاثاً... وهو فى قفطانه الصوف الأزرق - والذى لا يلبسه إلا فى المناسبات الكبرى يضحك ملء فيه، والفرحة تكاد تخرجه عن وقاره...

أما هى حسنية فسرعان ما انقلب اسمها من أم هدى، إلى أم سيد، فقد راحت تدور فى حجرات البيت... والفرحة تملأ جوانبها... وسيد بين ذراعيها فى أبهى زينته، والنساء من حولها، إحداهن ترش الملح فى عين الحسود... والأخرى تدق الهون ليطيع أبويه... والثالثة تقود فرقة من الأطفال الصغار الممسكين بالشموع هم يقولون فى صوت واحد «برجالاتك برجالاتك»... ورابعة رفعت صينية كبيرة مليئة بالفول والحمص والحلوى، تملأ يدها وتعطى لكل طفل ما يريد... والزغاريد لا تنقطع، والفرحة تعم الجميع ... لقد أنجب أبو البنات ولداً...

ومضت السنوات، والكل يدلل سيد، أخوته الخمس، وأبواه، وكل من يقع نظره عليه.

وكبر سيد...

وتنظر أم سيد إلى ابنها فرحة عمرها، فماذا تجده بعد ثمانية عشر عام من انجابه ؟

ولدا فاسد، لم يفلح فى مدارس، أتعس والده وقصف عمره من شدة حزنه، ودعائه عليه، فمات وتركها وفى عنقها هذه الشرذمة من البنات، وسيد، ويا ويلها من سيد ...

كان لطيفا، مطيعا، هادئا حتى بلغ العاشرة من عمره.. كان مثال الطفل الناجح فى دراسته، إلى أن التحق بالمدرسة الإعدادية.. وإذا بصوته يخشوش، ويطل شاربه، ويتطاول على أبيه... ويسرق من جيب والده النقود، وتطول يده على أشياء ملك أخواته، ويرسب كل عام سنتين وثلاثاً...

وتضرب أم سيد كفا بكف وهى تراه مستلقيا على الأريكة أمامها، نصف عار، وإحدى رجليه فوق الأخرى، وفى يده مجلة مستهلكة، لا تدرى ماذا كتب فيها لأنها لا تعرف القراءة والكتابة وبين أن وآخر يضحك بصوت جهورى، ثاقب، غير ملق بالا إلى أمه التى تحترق أمامه، وتلعن اليوم الذى ولدته فيه... والبطن التى حملته.. وتصيح وكلها تنتفض من الغضب والغيظ :

- ملعونة من تتمنى الولد.. ليتك مت قبل أن ترى النور...

غضبت أننى أنجبت خمس بنات.. ظفر أيهن بعشرة من أمثالك...

أكرمها الله فى البنات، فأصبحت الكبرى طبيبة، ومن تليها صيدلية، والثالثة محاسبة، والرابعة مدرسة، والخامسة على وشك التخرج فى كلية العلوم...

فرحة عمرها هاتيك الفتيات اللواتى لا يتحملن أن يرينها حزينة أو تعيسة.. بعد وفاة والدهن، وهن يعملن نصف الوقت، كل منهن التحقت بعمل بجانب دراستها.. كل منهن كانت تعطى لأمها نصف ما تتقاضاه، وتحجز النصف الثانى لمصروفها الشخصى حتى تخرجت أربع منهن والخامسة على وشك التخرج...

كانت تعتقد أنها أنجبت رجلا يحمى أخواته بعد موت والده.. وإذا بها أنجبت من يخزى أخواته من انتسابه إليهن؟

لم يكتف سيد بإهماله دروسه، ورسوبه فى الإعدادية عاما بعد عام حتى طرد من المدرسة، وإذا به ينضم إلى شلة من الصبية العاطلين والذين لا يتورعون عن ارتكاب أى موبقة فى سبيل الحصول على المال، ومضوا يخططون للمستقبل !!!

ولم تدر بما يدور من خلف ظهرها، وإلا لكانت سقطت ميتة من هول الصدمة... إلا أنه لفت نظرها أن إحدى بناتها سألتها يوما إن كانت قد أخذت نقودا من حقيبة يدها، ولما أجابتها بالنفى هونت عليها الأمر، واعتبرت المسألة منتهية...

وتكرر الأمر مع بقية الأخوات...

وكتمن الأمر عن والدتهن خوفا عليها... ولكنهن أمسكن بأخيهن، ورحن يضيقن عليه الخناق.. وإذا به ينفجر فيهن كالبركان ويهددهن بالقتل إذا هن أخبرن والدتهن بهذه الأراجيف لأنه لم يأخذ شيئا

منهن.. أينفقن نقودهن ثم يتهمنه بسرقتها؟!..

وسكتن على مضض، وحرصن بعد ذلك على أن يضعن أشياءهن في أمكنة خفية بعيدة عن متناول يده.

وسعت الأم لدى كل من تعرفه لتلحقه بعمل.. واستجاب لها الدكتور هلال، فألحقه بالعمل بائعا في صيدليته بأجر لا بأس به... وهدأت نفس أم سيد، واستبشرت خيرا، وطلبت من ابنها بإلحاح أن يذاكر للإعدادية من منازلهم بجانب عمله.. حتى يصير ندا لأخواته المتعلمات، فلا يخجلن منه، بل يتشرفن به...

وهزت في نفسه كلمات والدته، واعتبرها إهانة لكرامته، فكيف تخجل منه أخواته، وصاح فيها :

– يخجلن مني وأنا القمين أن أخجل منهن؟! خمس بنات، قوارير... «على رأى المثل» أما أنا فرجل. مهما فعلت، فلا شيء يعيبني فأجابته أمه :

– قوارير...! أخواتك يشرفن أى رجل ويرفعت رأسه إلى عنان السماء... أخواتك يتمنى أى رجل أن يكون له أخوات مثلهن... أنت الذى تعيبهن وتقصر رقبتهن.. حينما يسأل أحد من أخوهن ؟

راسب إعدادية – بلطجي، يسرق نقودهن...

وفزع سيد من كلماتها، وصرخ يسألها :

– من قال لك أنى أسرق نقودهن؟ قولي، من قال لك ذلك ؟

وهزت رأسها فى حزن قائلة :

- أنا التى عرفت، رأيتك بعينى هاتين، أتظن إنهن قلن لى.. أنهن يخشين على ويخفين عنى كل ما يكدرنى...

فصرخ :

- كاذبة، كاذبة هن اللواتى قلن لك. سأريهن...

ولم يتم، هجمت عليه كالمجنونة، وبكلتا يديها راحت توسعه ضربا كما اتفق وهى تصيح :

- تشتمنى يا جاهل.. تشتم أمك...

ووقعت مغشيا عليها...

وأصابه ذهول، أخذ يرش عليها الماء وهو يقبل يديها وقدميها ويستسمحها حتى أفاقت فأجلسها على الأريكة، وجلس أمامها كسيرا شاعرا بذنبه...

ولم تسامحه، ولا غفرت له، تجاهلته تماما.. اعتبرته غير موجود. ولم تخبر أخواته بما حدث حتى لا يزددن نقمة عليه!!

ومضت الأمور بحلوها ومرها وهو يحاول ارضاءها بشتى الطرق، وهى عازفة تماما عن مجرد النظر إليه.. ولكن قلبها بدأ يلين حينما وجدته يعتكف فى حجرته بمجرد عودته من الصيدلية، ويعكف على دروسه، فشعرت أنه بعمله هذا يصنع أكبر ترضية لها... واستمرت على خدمته دون أن تحدثه...

لم يكن مرتب سيد من الصيدلية يكفى متطلباته الكثيرة.. فهو ينفق على السجائر وعلى نزهاته وسهراته ضعف مرتبه.. وكان هذا الباقى يأتيه من «الشلة» على دفعات نصيبه من السرقات حتى يقومون بها منتظرين اليوم الذى سيتحفهم بما لا يحلمون به - كما قال لهم:

وعلم أن أخته الكبرى سيتقدم لها عريس ممتاز. فبيّت فى نفسه أمرا وعاش على أمل تحقيقه... وإلى أن يحققه استقام فى عمله وعكف على دروسه يسهر الليل...

واطمأنت له أخواته.. وهدأ بال أمه... واستراحت من ناحيته.. وشكرت الله وحمدته أن هداه أخيرا... ومع الأيام والشهور أصبحن يأمن جانبه، ويشركنه معهن فى أحاديثهن بعد أن أظهر دراية بالأمور.. ورحن يعملن أحيانا بمشورته... وهدأت النفوس.. وانشرحت الصدور... وأصبح مثار إعزاز بينهن...

وتقدم الخاطب، رجل فى حوالى الخامسة والخمسين من عمره، يكبر أخته كثيرا.. ولكن ثراءه واستعداده لكل طلباتها، ومركزه المرموق، جعلها تقبل دون تردد...

أخته ليست صغيرة السن، لقد بلغت الخامسة والثلاثين... لكنها لم تزل حلوة، أنيقة، تبدو أصغر من سنها كثيرا، وهى قبل كل شىء طبيبة.

وقدم العريس شبكة محترمة، ومهرا كبيرا، واتفق على كتابة الكتاب والدخلة معا بعد ستة أشهر لأنها لن تجهز سوى ملابسها وعليه هو الباقى كله...

وعم البيت نشاط كبير لتجهيز الابنة البكر، حبيبة أمها وموضع سرها.. واشترك سيد فى قضاء كل ما يحتاجون إليه من الخارج وأظهر نشاطا كبيرا، ومعاونة، وإحساسا بالمسئولية، ورضيت عنه أمه، وانفتح له قلبها...

وفجأة، ولم يمض شهر على الخطبة حتى اختفى المهر! ثلاثة آلاف من الجنيهات بالتمام والكمال ...!

وانقلب البيت الهادى إلى بركان : هم وغم ونكد لا حد له...

واهتم سيد بالمسألة أكثر من اهتمامهن.. وأصر أن يبلغ البوليس بهذه السرقة، فلابد أن البوليس سيعثر عليه ويعيد لهن النقود... فمن تجرأ هذه المرة على سرقة المهر ولم يجد من يردعه، سنيقض على الشبكة فى المرة المقبلة...

وفزعت الأم وبناتها.. ليس لهن أعداء.. ولا أقرب الجيران يعرف أن العريس قدم مهرا...

وأسقط فى يدهن جميعا، فحتى شهور مضت كان يمكن أن يخامرهن الشك فى أن يفعل سيد ذلك، أما الآن، وبعد أن استقام تماما، وأصبح إنسان آخر، فهن غير قادرات على اتهامه بهذه التهمة

البشعة...

هل يخبرن العريس، أم يسكتن ويبتلعن المصيبة؟...!.

أسـئلة وأسـئلة راحت تدوى فى عـقـولهن، وقـد جـفـاهن النوم فيقضين الليل كله يقلبن المسألة على جميع وجوهها، غير مستطيعات أن يصلن إلى الحل...

وأخيرا، ككل أمر صغر أو كبر مصيره إلى هدوء...

واطمـأن سيـد إلى أن المهـر بات فى حكم المفـقـود، وأن النفـوس هدأت، والأمور استقرت، والحياة رجعت إلى طبيعتها ... وفى صباح يوم، وبعد أن خرجت أخواته إلى عملهن وأصبح البيت خاليا إلا منه وأمه.. وبعد أن اطمـأن أنها فى الحمـام، أخرج المظروف من مكمنه الأمين الذى خبأه فيه، ثم وضعه فى صدارة وأحكم عليه سترته...

وما أن خطا خارج باب حجرته حتى انقضت عليه أمه، وأمسكته من تلابيبه، وصرخت فى وجهه بصوت يقطر غضبا وانفعالا :

- ملعونة الساعة التى حملتك بطنى فيها.

وأسـرعت تدب يدها فى صـدره وتنتـزع المظروف وتضـعـه فى صـدرها، ومن هول المفـاجـأة، تسـمـر سيـد فى مكانه وكل أنملة فيـه ترتجف خزيا وحسرة على ضياع الغنيمة التى كانت بين أنيابه.

وسقطت من أعلى الجميزة

ليس هذا من طبيعة الفتيات.. أفيقى لنفسك.. لم تخلقى صبياً حتى تتصرفى بهذه الطريقة العدوانية.. إياك وهذه الخشونة التى ستنفر الشباب منك حينما تكبرين.. ولن تجدى من يتزوجك.. فمن أهم مميزات الفتاة أن تكون لطيفة خجولا، لا تفصح عما بداخلها لأن ذلك يسقطها من أعين الرجال، إياك يا مايسة إياك...

هذه الكلمات كانت ترددها لها أمها كلما أوقعتها فى مأزق مع أولاد الجيران أو الأقارب، ولا سيما أنها كانت تكره اسمها لأنها تراه مائعاً لا يليق بفتونتها.. وكم من مرة تشاجرت مع أمها لأنها اختارت لها هذا الاسم، وتقول بغضب :

– ألم تجدى سوى اسم «مايعة» هذا لتطلقيه على ؟ لماذا لم تسمينى إحسان مثلاً أو وفاء، أو أفضل من هذا وذاك، نضال ؟!

فتجيبها أمها ساخرة :

– كان الأولى أن نسميك أبو زيد الهلالى !

وتخرج غاضبة وهى «تبرجس» برجليها...

ورفعت مايسة رأسها عن أنبوبة الاختبار التى كانت منذ الصباح تجرب فيها أنواع المحاليل وهى تحاول أن تستخرج منها التركيب الذى تريده، وعبرت عيناها الحجرة واستقرتا على رشاد، زميلها فى الدراسة منذ السنة الأولى حتى السنة النهائية... وهما يستعدان الآن للتقدم لامتحان البكالوريوس...

غريب حقا أن تصدر عنه هذه الكلمات، فلم تكن تتوقع منه إلا احتفاء وشكراً لأنها وفرت عليه المقدمات، وهى تراه لأكثر من شهر يحاول أن يفضى إليها بشىء لكنه هياب.. لا تدرى لماذا؟ هل المسألة تستحق كل هذا العناء ؟ أليس ما بينهما منذ السنة الأولى بالكلية كفيلاً أن يجعله من الجرأة بحيث يتقدم بكل ثقة ليقول لها ما يريد ؟!

حقيقة أنها تمتاز بالجرأة النادرة غير الموجودة فى فتيات جنسها فمنذ صغرها وهى تتصرف كالصبيان.. لم تكن ترى فارقاً بينها وبين أى فتى خصوصاً وأنها الفتاة الوحيدة على ثلاثة صبية، ووالدها واسع الثراء، وكثيرا ما كانت تذهب مع العائلة إلى عزبتهم، وهناك كانت تظهر قدرة فائقة فى التفوق على الأولاد: أولاد الفلاحين وأولاد الأثرياء من جيرانهم وكانت أكثر شجاعة «وفتونة» من سائرهم، فلم يكن أحد منهم يستطيع أن يتسلق شجرة الجميزة وكانت هى تتسلقها إلى قمتها ثم تضع راحتيها حول فمها وتنظر إلى جميع الصبيان من تحتها، وتطلق صيحة انتصار مدوية مثل

طرزان...

وكم من مرة شكاها أبناء الجيران لأمها لأنها أوقعت أحدهم بمد رجلها وهو يجرى فينطرح أرضا، وتضحك ملء فيها وهى تراه يبكى ويسرع - لا يتشاجر معاه - بل ليشكوها لأمها ! وهى ما كانت تفعل ذلك إلا لتفرض قدرتها وبأسها وشجاعتها التى لا تبارى بين هؤلاء الأولاد الذين يدعون أن البنات جنس ضعيف لا حول له ولا قوة أين هم الآن منها ؟...

أما فى المدرسة الابتدائية والإعدادية، فكان الجميع يخافونها لشدة بأسها ولم يكن أحدهم يجرؤ على الاقتراب منها إذا ما اشتد غضبها، وكثيراً ما أوقعت عليها الناظرة العقاب لاجترائها على شنكلة «الصبية برجلها» ثم تقف ويدها فى خاصرتها تنظر ما سوف يفعلون، وكان كل ما يفعلونه أن يشكوها إلى مدرسة الفصل أو الناظرة لتقتص لهم منها!.

لم يحدث أن رأت إحدى زميلاتها تتشاجر مع عدد من الزملاء، إلا واقتحمت الحلقة وضربت أحدهم بكفها!. وقد حدث ذات يوم وهى فى الإعدادية أن أراد بعضهم أن يهزأ منها فإذا بها «تشوطه» برجلها !...

وماذا فى تصرفها هذا؟ أليس من حقها أن توقف أى شخص عند حده إذا أراد التطاول عليها ؟ ثم ما الفرق بينها وبينهم؟ البنت

متقدمة فى دراستها وتدرس نفس ما يدرسونه؟ لقد أصبحت الفتاة الآن مثل الفتى فى كل شىء... فلا أقل عن أن تقف بينهم موقف الند.. لا موقف المتخاذل، ثم إذا كانوا يفخرون بعضلاتهم، فهى بحمد الله ذات لياقة بدنية تمكنها من أن تأخذ ثأرها بنفسها...

هكذا كانت مايسة تحدث نفسها كلما تعرضت لأى مضايقة بعد أن التحقت بالجامعة، وكانت صاحباتها يستنجدن بها فيجدونها على أتم الاستعداد لأن تذود عنهن.. لكنها تحتقر تخاذلهن، وتحاول دائما أن توقظ فيهن روح النضال لينلن حقهن بأيديهن.. وعبثاً حاولت.. ومن هنا لقبها الطلبة «بالشجيع».. كانوا يتهامسون كلما مرت بهم، ويغرقون فى الضحك...

فهل جعلها ذلك تتراجع عن طريقتها تلك ؟

ربما حاولت، لكن ليس من أجل الطلبة، بل من أجل «رشاد» فمنذ التقت به فى فناء الكلية، فى اليوم الأول لالتحاقها، أعجبها أسلوبه فى الحديث، وبهرها ذكاؤه اللماح، وطريقة مناقشاته.. وحديثه مع ما يتميز به من قامة فارهة، وملامح خشنة، تنبى عن رجولة واستقامة على صغر سنه وقالت فى نفسها :

هذا رجلها... لن تجعله يفلت من يدها...

ولماذا لا تختار رجلها كما يختار الشاب فتاته؟ ليست أقل منه فى شىء فهى ذكية ومتفوقة، وإنسانة بمعنى الكلمة فيها شهامة، ونخوة،

واعتزاز بالنفس وليست أقل منه وسامة، وإن كانت بين الفتيات لا تعتبر من الجميلات.. وهذا لا يهم، ولعله أيضا لا يهم شاباً مثل رشاد...

ومنذ اليوم الأول اتخذت منه صديقاً.. وكان عند حسن ظنها، وكأنه رأى فيها الصديقة التى يعتمد عليها فيها معمل لأنه يجمع بين العمل والدرس لظروف عائلية...

لم تهتم مايسة بملابسها وزينتها ككل فتاة تريد أن تحصل على من تحب بل اهتمت بدراستها لتكون جديرة بمن أعجبها... فملبسها ليس به عيب إلا أنه خال من الزخرف بين فتيات يتبارين فى إظهار شياكتهن وأبهتهن.... وهى ليست على أنوثة إطلاقاً بين فتيات كل همهن إثبات أنوثتهن، والتزين والتبرج للفت الأنظار...

فمما لا شك فيه أنها جذبت رشاد إليها، فهما دائماً يتبادلان الأحاديث الجدية منها والعائلية، حكى لها عن ظروفه، وظروف عائلته، فهو إنسان طموح يسعى للأولوية والامتياز فى كل شىء فى علومه ومظهره.. ولم يقبل أن ينفق والده عليه، بل جمع بين أعمال ترجمة يقوم بها فى البيت بجانب دراسته، ليتسطيع أن يظهر بالمظهر اللائق الذى يريده لنفسه...

وفى الحقيقة لم تعجب مايسة بتهالك رشاد على المظهر الأنيق الذى لم تكن هى تقيم له وزناً، ولكن بما أوتيت من رجاحة عقل،

استبعدت أن تجد الإنسان الكامل فى كل شىء.. وعزت ذلك إلى حرمانه فى يفاعته من أشياء كان يتمناها ولم يحصل عليها لكثرة عدد أخوته وقصور راتب والده عن تلبية كل رغباته.

ليس هذا بذى بال على كل حال، قالت لنفسها وهى تزيد من اهتمامها به حتى أنها قدمت له فى عيد ميلاده، فى السنة النهائية، أزرار قميص من ذهب ولم تكن قد فعلت مثل ذلك من قبل..

وأخذ رشاد، ولم يكن يستطيع أن يرد إليها هذه الهدية بمثلها ولكنها أوقفته عن الاسترسال فى الحديث، حينما قالت له بجد :

– أننى لا أحب الذهب، ولا أحب أن ارتديه، ولدى منه لكثير، فهل رأيتنى يوماً ارتدى أى حلية من ذهب ؟.

فسألها :

– إذن لماذا تجشمين نفسك احضار نوع لا يروقك ؟

فأجابته فى تضاحك لتسرى عنه :

– لأنه يروقك، أليس هذا يكفى ؟

– لكنى لا أستطيع قبول هدية لا يمكننى رد مثلها .

– هل لابد أن ترد الهدية بمثلها ؟

فهز رأسه فى أسى وقال :

– أعتقد ذلك.

أجابته فى جد :

– لا تكن تقليدياً إلى هذا الحد، فأى هدية بسيطة ستكون لها قيمة فى نظرى ما دامت منك، والأفضل ألا تجشم نفسك عناء التفكير فى الرد، لأن هذه المسائل لا وزن لها عندى.

نظر إليها نظرة لم تفهم معناها ثم قال :

– هكذا ؟

وكان ردها باقتضاب.

– هكذا.

وازدحمت أيامهما بعد ذلك بالاستعداد للامتحان النهائى فلا وقت لأى حديث سوى الدرس، والعكوف ليل نهار على المذاكرة...

وقبل نهاية العام بشهرين قالت له مايسة:

– هل عندك مانع من الحضور لدى لنذاكر معا؟ أعتقد أن ذلك يجدى على كلينا..

وتهلل وجهه وقال :

– أبدا بكل سرور.

وأسعدها أن تجد منه هذا القبول المقرون بالسرور، واستشعرت أنهما من معدن واحد، إلا من فروق بسيطة لا تقاس بالنسبة لما يتمتعان به من ذكاء وحب للتفوق.. وأسعدها أكثر أن يسعده قربها منه.

وحاولت فى أوقات الراحة بين المذاكرة، وحول كوب من الشاى

وبعض البسكويت، أن تستشف أعماقه وما ينوى أن يفعله بعد التخرج وهل يفكر فى الزواج، وما نوع الفتاة التى تستهويه..؟

وكانت الأحاديث بينهما تطول أحيانا، ولكنه حرص أن يبتعد عن الخوض فى الزواج أو نوع الفتاة التى تستهويه، فى حين استماتت هى أن تعرف رأيه.

وبما عرف عنها من المبادأة، قالت فى وضوح :

– أننى مشوقة لمعرفة نوع الفتاة التى تتمنى الزواج بها..

وأسقط فى يده، ماذا يقول لها ؟ لو قال الحقيقة ربما يفقدها إلى الأبد... ولو كذب لابد أن «تكشفه» فهى من الذكاء بحيث لا يعجزها أن تعرف صدقه من كذبه.

وبعد أن ضيقت عليه الخناق، استجمع شجاعته وقال :

– الحقيقة أننى لم أفكر حتى الآن فى مسألة الزواج هذه.. فلا يخفى عليك كم يتكلف الزواج فى أيامنا، فى حين أننى لا أملك شيئا من تكاليفه...

فرفعت حاجبيها بدهشة وقالت متسائلة :

– مثل ؟

– أشياء كثيرة مثل الشبكة والمهر والشقة، وتأثيثها...

وقاطعته قائلة :

– لا تفكر فى شبكة أو مهر، فهذه خزعبلات يتمسك بها عامة

الناس، وليس لها أى قيمة عندى.. أما الشقة فهى جاهزة لأن والدى خصص لى شقة فى عمارتنا شقة مؤثثة بكل ما تحتاجه العروس، المهم أنك لن تتكلف مليما سوى ملابسك.

ثم تضاحكت وهى تقول :

– كما يختار الرجل الموسر الفتاة الفقيرة التى يحبها وتبادله الحب ويرى فيها الشريكة الوحيدة لحياته.. كذلك اخترتك أنا، لعلمى أنك تبادلنى عاطفتى، وما أملكه فهو لك، ألسنا سنصبح شريكين فى كل شىء ؟.. ماذا فى ذلك إذن ؟..

وتفصد جبين رشاد بالعرق، فلم تصادفه فى حياته مثل هذه المسائل حتى يستطيع أن «يهضم» كلماتها ويتقبلها بصدر رحب.. بل إن كرامته أبت عليه أن تختاره فتاة لأنها تملك كل شىء، وهو لا يملك شيئاً وأزعجته كلماتها وأغضبته، وأحس أنه يجب أن يرد إليها إهانتها لاعتقاده أنها أهانته... فقال وهو يكظم غيظه :

– صدقينى إننى إذا فكرت فى الزواج فلن تكونى أنت الفتاة التى اتخذها شريكة لحياتى...

فقاطعته بدهشة ممزوجة بالغضب.

– لماذا ؟!

فأردف :

– لأنك لست النوع الذى يلائمنى.. أنت صديقة نعم صديقة

عزيزة.. لكن زوجة .. كلا ...

وطنت فى أذنيها كلمات أمها متضخمة مليون مرة :

– سينفر منك الشباب.. سينفر منك الشباب.. سينفر منك الشباب...

ومن خلال الطنين الذى ملأ أذنيها، سمعت رشاد يقول :

– أعلم أنك لا تعدلين بالصراحة شيئاً، وكنت معك فى منتهى الصراحة، وأنا على يقين أن كلامى لن يغضبك، فلم يكن فى استطاعتى أن أموه عليك.

وعندما سلم وانصرف.. أحست أنها سقطت من أعلى الجميزة...

هو والجذور

وقف يجمع حقائبه، وأمه وأختاه من حوله يساعدنه فى وضع كل شىء فى مكانه، ويرتبن له ملابسه بحرص وحب لم يجدهما فى مشوار سنواته العشر التى قضاها غريباً عنهن.. لكن شتان بين يوم سافر أول مرة، وسفره اليوم.. فهناك أشياء صغيرة يحس بها المرء ولا يستطيع تعليلها وهو يحاول أن يفسرها.. وأخيراً يتقبلها دون مناقشة..

إلى هنا وقف «ممتاز» عن التفكير فى حاضره.. فيما يستشعره.. فيما يراه أمامه... فقد راح قلبه يدق دقات عنيفة...

ويداه تعدان حاجياته، رجع به شريط حياته إلى عشر سنوات مضت، وكان قد تخرج بمادتين فى كلية الآداب قسم جغرافيا.. وصمم على السفر إلى الخارج ليعمل فترة ثم يعود فى موعد الدور الثانى ليمتحن فى المادتين ويحصل على الليسانس .. وينتظر سنوات لا يدرى مداها حتى يتم تعيينه عن طريق القوى العاملة..

الحياة أمامه صعبة، والده طريح الفراش منذ احالته إلى المعاش

- منذ عام - والمعاش الذى يتقاضاه يكفى بشق النفس لتدبير حياتهم المعيشية، وشراء الأدوية لوالده، والإنفاق عليه فى الجامعة، وعلى أختيه فى المدارس...

كم من مرة فكر فى ترك الجامعة والالتحاق بأى عمل ليجنبهم الإنفاق عليه، ويقوم هو بمتطلباته ليشعر أنه يعيش.. فهو يحس أنه يدب على الأرض جسداً بلا روح، روحه دائماً هائمة فى المجهول، فى يوم يمكنه أن يشعر بآدميته؛ و بأنه أقل واحد ممن يراهم حوله.. فهم ينفقون بلا حساب، يضحكون ويمرحون ويتواعدون للذهاب إلى السينما أو المسرح أو حتى إلى أفريز شارع سليمان باشا يأكلون الجلاس.. أما هو فيحسب ألف حساب قبل أن يمد يده إلى جيبه ليخرج قرشاً من الخمسين قرش التى تعطى له أول كل شهر يتصرف فيها كما يشاء!.. فهى للمواصلات ولمصروف يده.! وغالباً ما كان يقطع الطريق من بيته فى شارع جزيرة بدران فى شبرا حتى جامعة القاهرة ليوفر قرش المواصلات.. وكم من مرة بكى غيظاً فى خلوته لاحساسه بالقهر وهو يستعيد نظرات والده المستعطفة لكيلا يترك الجامعة وهو على وشك التخرج ليعمل، وأين هو العمل؟ حفيت قدماه فى كل مكان ولم تعرض عليه إلا أعمال أقرب ما تكون إلى أعمال السعاة.. ولم يقبل أن يعمل خادماً أو شبه خادم، أفضل من هذا إذا لزم الأمر - أن يعمل خادماً فى بلاد غريبة لا يعرفه فيها

أحد، فالعمل هناك فيما سمع لا يحط من قدر صاحبه فى نظر الناس، ولا يحرمه ذلك من كامل احترامه وكرامته.

ولكن، من أين أجرة السفر ؟

هذه مشكلة المشاكل، بل المشكلة الكبرى، فبغير أجرة السفر لا سيتطيع التحرك من مكانه..

وفى مواجهة أحزانه، وهيامه على وجهه طول النهار يفكر فى مصيره، إذا بصديق عمره «شاكر» - وكان قد سافر إلى الغرب منذ ثلاث سنوات قبل أن يتم تعليمه، بعد الثانوية العامة، سافر مع من سافروا على سفينة يعمل وقاداً طوال الليل، وفى النهار ينام فى أى مكان - وتعانقا عناقاً حاراً، وأخذ شاكر يقص على صديقه ممتاز ما صادفه من أهوال، وكيف كان ينام فى العراء، ويعيش يومه على لقمة لا تسد الرمق...

ولكن كلامه لا يدل على مظهره الأنيق الرائع.. مما جعل «ممتاز» لا يصدق أذنيه، ولم يتركه شاكر لتساؤلاته، إذ راح يقص عليه كيف تبدل به الحال بعد أن وجد عملاً فى مطعم، يقدم لرواده الطعام... بمعنى «جرسون» فى بلدنا هنا، هناك فى بلاد الإنجليز، الجرسون له وضع خاص، عليه أولا أن يفهم الإنجليزية ويتكلمها ولو «طشاش» وهو إنسان محترم، والأهم من كل ذلك يتقاضى مرتباً مجزياً جداً.. هذا غير «البقشيش» الدسم ووجبتين على حساب المحل...

وسال لعاب ممتاز وهو يستمع إلى هذه المعلومات الرائعة، ولم يتركه شاكر إذ فاجأه بما أطار صوابه :

– أما الملابس هناك فبأرخص الأسعار.. فهذه البدلة التى تراها على لم تكلفنى أكثر من خمسة عشر جنيها! استرلينيا طبعاً، ثم البلوفرات والقمصان والجوارب والأحذية، كل ذلك متاح لك فى أى وقت تشاء...

وقاطعه ممتاز فى حسرة :

– وأين لى كل ذلك يا شاكر؟ أنا لا أملك مليما، وليس معى حتى تذكرة الذهاب...

فصاح شاكر وهو يخبط بيده على كتفه :

تذكرة الذهاب؟ هل قررت أن تترك أهلك؟ ووالدك سيوافق؟

فأجابه :

– طبعا، لقد اتفقت معهم، لم يمنعنى سوى النقود.

– إذن لا تحمل هماً، رتب نفسك وستسافر معى آخر الشعر...

وعانقه ممتاز عناقاً حاراً وهو يعده بأنه لن ينسى له هذا الجميل ما عاش، وإنه سيرد له ثمن التذكرة من أول مرتب يتقاضاه...

فقهقه شاكر وهو يجيبه :

– هنك المرتب أسبوعياً... قل ستردْه خلال شهر أو شهرين... وستكون معى لحين تدبير العمل لك...

وراحت هذه الأفكار ترسم ظلالاً من الواقع الذى عاشه ممتاز خلال شهوره الأولى فى لندن مع صديقه شاكر.. ولم يكن من السهل أن يجد له عملاً، بل ظل أياما يجوب الشوارع بمفرده حتى عودة شاكر من عمله. وأحيانا كان يأخذه معه ليتمرن على العمل.. وأخيراً استطاع أن يلحقه بعمل فى نفس المطعم الذى يعمل فيه، يغسل الأطباق...

وارتسمت ابتسامة على وجه ممتاز وهو يضع آخر قطعة من ملابسه فى الحقيبة. وراح يتذكر كيف أنه سافر - فى المرة الأولى - ببدلة واحدة مع قطعتين من الملابس الداخلية، وبلوفر. وهو الآن يملك ثلاث حقائب كبيرة ممتازة الصنع مليئة حتى آخرها بأفخر الثياب...

عاش هناك عيشة التقشف حتى سدد ثمن التذكرة لصديقه. وكان يعمل بكل نشاط ودأب.. أحيانا يصل الليل بالنهار دون كلل ليستطيع أن يرسل إلى أهله بعض النقود...

ولم يمض العام حتى نال رضى أصحاب المحل.. فنقل إلى خارج المطبخ فى وظيفة «جرسون» فبادر باستئجار حجرة بمفرده قريبة من صديقه شاكر..

ومرت الأعوام والخطابات لا تنقطع بينه وبين أهله، وكان يرسل مع كل من ينزل لمصر، ملابس ونقوداً وكل ما تطلبه شقيقتاه...

ثم أرسل بدلة وجوارب صوفية لوالده وبعض الأدوية...

وأرسلت أمه تدعو له وتطلب منه ألا يرسل شيئا آخر لوالده لأنه مات منذ عام. وقد أخفوا الخبر عنه خوفاً عليه وهو فى الغربة... ورجته بحياتها وبكل عزيز لديه ألا يترك نفسه للحزن لأن كل شىء مضى ووالده الان فى السماء، وكان يدعو له حتى آخر لحظة من عمره..

وبكى . بكى كما لم يبك فى حياته.. بكى غربته، ووحدته.. بكى والده الحبيب وهو يرى عينيه الحزينتين ترقبانه وهو يعد حقيبته الهزيلة، وشفتاه تتمتمان بالدعاء له .

واستغرقته لحظة الوداع.. لحظة أن أخذه فى حضنه يتشممه ويقبله دون أن ينبس بكلمة.. ثم ربت عليه فى حنان دافق وتركه ورقد موليا إليه ظهره..

هل كان يبكى؟ أتراه خشى أن ينهار أمامه حينما تغلبه دموعه، وهو الذى لم يره يوماً يبكى؟. لم يسمع صوت بكائه، وكان مسرعاً فترك الحجرة وعيون أختيه وأمه تلاحقانه بالعبرات...

هل يعود الآن ؟ كيف ؟ لن يسمحوا له بالدخول مرة ثانية.. خصوصاً وقد أصبح العمل – بعد ثمانى سنوات من إقامته – أصبح العمل نادراً جداً، كثيرون ممن وصلوا بعده بعام أو عامين، عادوا مرة ثانية إلى الوطن لعدم عثورهم على عمل.

لقد وعدوا أن يعطوه إذنا بالإقامة الدائمة.. وهو ينتظر.

ومع الانتظار ضاعف العمل كيما يساعد فى نفقات العائلة التى أصبحت الآن مسئولة منه حتى ولو تقاضوا معاش والده كاملاً...

ومضت السنة الثامنة ثم التاسعة.. وتسلم إذن الإقامة.. وخلال هذه السنوات استطاع أن يشترى فيلا صغيرة أثثها تأثيثاً جميلاً.. فيلا بالتقسيط الطويل المدى مكونة من خمسة حجرات على أساس أن تكون حجرة لأختيه، وواحدة لأمه، وواحدة للطعام والباقى للمكتبة والمعيشة، وأمام الفيلا حديقة صغيرة مليئة بالورود...

أثث الفيلا وهو يرتب فى ذهنه إحضار أمه وأختيه ليعيشوا معه.. فماذا بقى لهن فى الوطن ؟. لقد أصبح مقتدراً وفى إمكانه أن يكفل لهن حياة طيبة، والحياة فى الضاحية القريبة من لندن، حياة جميلة، نظيفة، تبهج النفس، غير الحياة فى البيت المتواضع فى الحارة المتربة التى يعيشون فيها...

واكتملت السنوات عشراً.. وأصبح «ممتاز» مديراً لأحد المطاعم الراقية، يتقاضى مرتباً ضخماً، فأرسل يبلغهن أنه سيحضر لأخذهن معه فى العودة، فليرتبن أنفسهن على هذا الأساس..

وعاد ممتاز إلى القاهرة بعد عشر سنوات فى الاغتراب، عاد فإذا البلد غير البلد، والناس غير الذين عرفهم.. كل شىء تغير حتى والدته وأختاه...

قابلنه بالعناق والقبلات، وأحضر لهن من ملبوسات وحلوى وكل

ما تشتهى أنفسهن ما أسال لعاب الفتاتين...

وجد أخته الكبرى تخرجت فى الجامعة وتسلمت عملها فى الحكومة، والصغرى على وشك التخرج...

وجد والدته وقد خط الشيب شعرها، وامتلأت كثيراً عن ذى قبل، وثقلت حركتها...

وجد حجرة والده وقد أصبحت حجرة للمعيشة، تخيل السرير ووالده فوقه، رأى عينيه ونظراتهما الحزينة... ولم يلبث أن اعترته غصة وكاد يشرق بالبكاء، وإذا أخته الكبرى تجذبه من يده ضاحكة مهللة لتريه الثوب الجميل - الذى أحضره لها - وهى ترتديه شديدة الزهو به، تخطر فى مشيتها كأنها ترقص...

وقضى شهرين بينهن: يضحك ويخرج ويتنزه معهن.. ولكن فى نفسه شعوراً أن كل شىء قد تبدل...

الصغيرات كبرن، أصبحن منطلقات متحررات غير مرتبطات كثيراً بالبيت، الأم منطوية ولكن ليس فى حزن، بل فى تسليم ورضاء بالواقع...

ورفض ثلاثتهن ترك البلد نهائيا والمعيشة معه فى بلد غريب.. رغم كل ما راح يغريهن به من جمال الفيلا التى أعدها لهن، وكيف مكث السنوات الطوال فى إعدادها خصيصاً لهن...

قالت الأم : أنها لا تستطيع أن تنخلع من جذورها فى هذه السن.

– لا يمكن يا بنى، لقد أصبحت على شفا النهاية.

وقالت أخته الكبرى وهى تهلل :

– سأزورك لاستمتع بالحياة فى بلاد الإفرنج، لأمكث شهراً إجازتى، ولكنى لا أستطيع الحياة بعيداً عن بلدى...

وقالت الصغيرة وهى تطفر فى ثوب جميل مما أحضره لها :

– بعد أن أنال الليسانس سأحضر عندك وأمكث ثلاثة أشهر فقط أعمل تحت يديك فى المطعم الذى تديره... ثلاثة أشهر فقط أعود بعدها محملة بأجمل الأشياء لاتسلم العمل الذى وعدنى به مدير إحدى شركات القطاع الخاص، وأكون فى غاية الشياكة والأبهة ...

وسألها فى حنق :

– وأين عرفت هذا الشخص ؟

فأجابت وهى تتضاحك :

– فى حفل أقامته إحدى صديقاتى بمناسبة عيد ميلادها.

لقد اعتدن حياتهن بدونه.. أصبح نشازاً وسطهن.. لقد قضى عمره ليهيئ لهن أجمل مكان، وأفضل حياة، وهو يتصور نفسه بينهن.. أما هن ؟..

ومالت عليه أمه تهمس :

– أختك جاءها عريس، شاب ممتاز، سيحضر الليلة ليتعرف عليك!

سيحضر ليتعرف عليك!

هكذا قالت أمه ! لا لأتعرف أنا عليه! لقد أصبحت غريبا عنهن...

وكانت سهراتهن معه تنحصر كلها فيما سيعطيه لأختيه من نقود وما يشتريه لهن من لندن! الكبرى للجهاز والصغرى لكى تكون لائقة المظهر فى العمل المحترم الذى ستلحق به..!

وأحس أنه أصبح لديهن أداه، أخ نعم، ولكن على قدر ما يكون نفعه لهن.. على الأقل بالنسبة لأختيه...

غاص الحب الحقيقى الذى كان يستشعره بينهن قبل سفره.. أحس بالغربة وهو وسطهن!...

وأعطاهن كل ما طلبن من نقود، لم يرفض لهن طلباً... وها هو يعد حقائبه إيذاناً بالعودة... فرق كبير بينه وهو يعد حقائبه للمجىء يكاد قلبه يطفر من شدة الفرح والحنين... وبينه وهو يعدها للعودة وهن حوله يساعدنه، وقلبه مثقل بالهم...

لو كان والده على قيد الحياة، أكان شعوره مثلهن ؟

ربما ! وربما أيضا لا ....

وقاوم اليأس فقال لأمه للمرة الأخيرة:

– فكرى جيداً يا أمى، ألا يمكنك أبداً أن تأتى معى؟. أستطيع أن انتظر إذا غيرتن رأيكن...

فزمت شفتيها لحظة، ثم قالت :

– ألم أقل لك...

واعترضت حلقة غصة ، وسكت ...

الوليمة

احتضنت ولديها، وهطلت دموعها مدراراً.. دموع القهر.. دموع الغيظ المكتوم.. دموع من شقيت طوال يومها بإخلاص، لعلها تنال قسطا من الراحة وسط ولديها، وينعموا جميعاً بوجبة شهية، استقر رأيها، واستنفذت عزيمتها على أن تتحفهما بها هذه الليلة بعد أن أنعم عليها بعض المرضى بمبلغ لا بأس به...

وشددت الضغط على ولديها تحتضنهما وهى تسترجع شريط حياتها التعسة.. ففى ظل والديها نشأت فى فقر مدقع بين ثمانى أخوات هى أكبرهن جميعاً.. يشقى الوالد طول يومه ليستطيع أن يسد رمق بناته بينما تعمل الأم بعض الأيام فى بيوت الموسرين.. وهى الابنة الكبرى، لم يكن حظها من التعليم إلا أقل القليل... وما أن شبت عن الطوق، وحصلت على شهادة القبول، حتى ألحقها أحد أولاد الحلال لتعمل فى مستشفى خاص «عاملة نظافة»، لتساعد والديها فى تربية أخواتها..

هل هذا مصيرها ؟ هل كتب عليها أن تشقى بقية عمرها فى مثل

هذا العمل؟ لكم تمنت أن تنال الإعدادية لتلتحق بمدرسة التمريض كبعض زميلاتها ممن هن فى مثل حالتها الاجتماعية.. لكنها لم تستطع .. فليس فى وسع والدها أن ينفق عليها مليما واحداً، بل هو فى مسيس الحاجة لأن تساعده هى ولو بجنيهات معدودات ليسد متطلباته، بل أقل متطلبات هذا الجيش من الأطفال.. وزميلاتها ليس لهن هذا العدد من الأخوات، فتمكنّ من مواصلة الدرس.. أما هى...

وهطلت دموعها مرة أخرى وهى تربت على ولديها..

استطاعت بجهد أن تدرس من منزلها بمساعدة بعض صويحباتها وبعد ثلاث سنوات فى عمل مضن أمكنها أن تحصل على الإعدادية.. وهنا أتاها الفرج من عند الله.. وجدت من يرسلها إلى بلد عربى لتعمل مساعدة ممرضة فى مستشفى هناك...

وفى خلال شهور قليلة أتقنت إعطاء الحقنة ومباشرة المرضى.

وازدهرت أحوالها وأرسلت لوالدها معظم ما تتقاضاها ليعلم أخواتها وليحسن مستواهم المعيشى...

كانت تحضر إلى القاهرة مرة كل عام، تجلب معها كل ما تشتهيه أخواتها، من ملبس ومفروشات لتزين بها منزلهم المتواضع.. ومرة أحضرت سجادة، ومرة أخرى استطاعت أن تشترى نجفة، وقلبها يقفز فرحاً وهى ترى الفرحة تطفو من عيون أخواتها، والحمد والشكر من قلب أمها وأبيها...

وخلال عدة سنوات نقلتهم من الفقر المدقع، إلى الحياة الكريمة، إلى الشعور بأنهم آدميون، لهم حق الحياة وسط الأقارب وفى المدارس.. ما من مرة حضرت إلا وأكدت على والدها أن لا يبخل على أخواتها بالتعليم، فذلك وحده سيرفع من قدرهن ويجعلهن مستطيعات أن يمارسن حياتهن معززات مكرمات...

واستطاعت «فتحية» أن تعرف طريقها إلى الكوافير .. ولم لا؟ ففى مقدورها أن تنفق جنيهين لتبدو جميلة، لتشعر أنها ليست أقل ممن هن فى مثل سنها... وفى الحى الشعبى الذى يقطنون أصبحت إنسانة لها قدرها، فشبان الحى يتطلعون إليها.. يطلبون ودها.. فهى حلوة، رشيقة القد، بائنة الطول، أضفت عليها الملابس المستوردة نوعاً من البريق بين أناس يعيشون على الكفاف.

نعم الشبان يطلبون ودها، لكن قلبها لم يتعلق إلا «بفتحى» العامل بمحل كوافير السيدات فى الحى المجاور لحيهم.. منذ أن بدأ – لأول مرة – يصفف لها شعرها، ويتفنن فى «الفورمة» لتخرج فتحية من تحت يده إنسانة أخرى...

واستدرجها فتحى فى الحديث.. لعلها أعجبته فأراد أن يعرف ابنة من هى، وماذا تعمل؟ وحينما عرف أنها تعمل فى بلد عربى، ازداد تعلقه بها وبدأ يطارحها الغرام.

لكن الزواج مسئولياته جسيمة وأمامها سنوات طويلة تساعد فيها

والديها لتربى أخواتها.. ولابد لها أن تضحى، حتى ولو لتنعم هى بما يتيحه لها مرتبها من انفاق على زينتها وملبسها، وهو ما لم تكن تحلم به يوماً فى حياتها...

طالبها فتحى أن تفاتح والدها فى أمر الزواج، فلم تصدمه بالرفض خوفا من فقدانه، بل استمهلته حتى تتأكد من عواطفها نحوه، تعلة أرادت بها أن تطيل الوقت حتى تتبين ظروفها، الأمر الذى جعله يزداد تعلقها بها...

ومع الأيام تأكدت أن هذه المسألة يجب أن تسقطها من حياتها تماماً ومن الجنون مجرد التفوه بها أمام والديها فلا أحد سواها يدرى شدة حاجة هذه القبيلة من المدخرات إليها والى كل جنيه ترسله إليهن ومن العبث أن تهدم كل ذلك وتقطع عنهن المورد الوحيد الذى يعشن عليه فلن يسمح لها زوجها أن تقتطع من مرتبها لتساعدهن هذا إذا سمح لها أصلا بالعمل فى بلد عربى..

استقر رأيها على السفر دون أن تخبره، وحاولت نسيانه...

لم تستقر أياما حتى وصلتها رسالة من فتحى مفعمة بالحب والهيام والعتاب على هروبها منه، وأنه ذهب إلى والدها ليطلبها منه، رحب به لكنه استمهله حتى يعرف رأيها ويتأكد من موافقتها، من والدها أيضا عرف عنوانها...

لم تمض أيام حتى وصلتها رسالة من والدها، من خلال سطورها

أحست بمدى حزنه لكنه ترك لها الرأى الأخير... داعياً الله أن يوفق اخواتها فى السير على هداها، فلابد لها يوماً من الزواج، كل ما يتمناه أن تتمهل حتى تنال أختها التى تليها شهادتها المتوسطة هذا العام.

أرسلت لوالدها تقسم أنها لا تفكر فى الزواج الآن، وأنها لن تنتظر أختها فقط ، بل لن تتزوج حتى تنال أختها الثالثة دبلوم التجارة المتوسطة التى لم يبق عليها إلا حصولها عام..

لم تنقطع رسائل فتحى، وبعد كل رسالة تحاول أن تتجلد وتقنع نفسها أنها لن تلين، وفى الوقت نفسه اقتصرت قليلاً من إرسال النقود إلى والدها بحيث لم تزد عما كانت ترسله كما كانت تفعل دائماً كلما أتتها علاوة... وراحت تجمع كل ما يصل إلى يدها وتشترى به جهازاً لها من أقمشة ومفروشات، واشترت نجفة لحجرة نومها المقبلة..

فى نهاية العام نزلت محملة ببضائع لا حصر لها، وكان أول المستقبلين لها فتحى، لم يقف والدها فى طريقها بعد أن تحسنت حالتهم وتخرجت أختاها والتحقت كل منهما بعمل فى القطاع الخاص، وأصر فتحى ألا تسافر مرة أخرى، وتقدم ووالدته لطلب يدها على أن تعمل ممرضة فى أى مستشفى خاص بالقاهرة.

وزفت فتحية إلى فتحى فى شقة من بيت تملكه والدته خصصت

شقه لأولادها، فأعطت فتحى واحدة وأخاه واحدة واثنتين لابنتيها اللتين لم تتزوجها بعد...

وعاشت فتحية شهراً فى سعادة غامرة.. ثم انقلب الحال رأساً على عقب.. فالأم مسيطرة على أولادها سيطرة لا حد لها، بحيث لا يتصرفون فى أى شىء إلا بإرادتها، ولا راد لكلمتها، وصار من المألوف جداً أن يترك فتحى زوجته فى شقتها - فهما يقطنان الدور الرابع من العمارة - ويبيت عند أمه أياماً، قد تصل إلى الشهر.. دون أن يسأل عنها، لأن تعليمات والدته قضت بذلك لأى هفوة صدرت من فتحية، حتى تركع تحت قدميها وتسترحمها.. وناهيك عن الطعام الذى يجب أن يطبخ فى شقة الوالدة ويتناوله الجميع هناك...

وأنجبت فتحية ولداً ثم بنتاً، ولما كانت تذهب إلى عملها فى الصباح ولا تعود إلا عصراً، فالطفلان يظلان عند حماتها وأخت زوجها حتى تعود، وهنا عليها أن تدفع لحماتها شهرياً عشرين جنيها من مرتبها، وكذلك يدفع زوجها للاعتناء بالطفلين..

والمصيبة الكبرى أن أى كلمة أو موضوع يحدث بينها وبين زوجها لابد أن يكون خبره عند حماتها فى اليوم التالى، وياويلها إذا تفوهت بأى كلمة - ولو عن حسن نية - فى حق حماتها، يكون جزاؤه حرمانها من زوجها لأيام.. وإهمال طفليها اللذين تعبدهما وتعيش وتشقى من أجلهما.

وكم من مرة اشترت فى طريق عودتها طعاما للطفلين وهنا لابد أن تمر على حماتها قبل صعودها إلى شقتها لتأخذهما فيؤخذ منها ما جلبته ويوزع بالتساوى على الأم وبنتيها والطفلين فلا يخصهما إلا أقل القليل أو تصرخ فيها حماتها قائلة لماذا هذا الاسراف؟ ألا يكفى ما أصنعه من طعام إذا كانت معك زيادة من نقود أعطها لى فأنا فى حاجة إليها لتربية ولديك أم خيل إليك أن المبلغ التافه الذى تدفعينه كاف لكل ما أصنع من أجلهما ثم الشقة التى تقطنانها ولا تدفعان أنت وزوجك عنها مليما يجب إن يزاد المبلغ فالله أعلم كم تربحين من هبات المرضى.

وما إن تدفعها نفسها الملهوفة على ولديها لتشترى لهما شيئا إلا وتصمم حماتها على زيادة المبلغ حتى وصل ما تدفعه فتحية شهريا لحماتها إلى أكثر من ثلاثين جنيها...

وانقطعت عن الشراء تماما مهما صادفها فى طريقها من مشهيات..

وفى يوم نزل المستشفى نزيل ثرى ودخلت لاعطائه حقنة فأتحفها بجنيهين...

وقررت فتحية وهى تطير فرحاً، أن تشترى دجاجة مشوية من المطعم الذى تمر عليه كل يوم فى طريق عودتها تتنسم رائحة الشواء شوقا إليه..

وقصدت المطعم، وانتقت دجاجة سمينة جيدة بعض الشيء، وهي تمنى النفس بوليمة شهية مع طفليها بعد طول حرمان، وعادت إلى البيت، طوال الطريق ظلت تخطط كيف تمضي إلى شقتها دون أن تلمحها حماتها أو أختا زوجها، فهن يقطن الطابق الأول، والباب دائماً مفتوح على مصراعيه، حتى يرين الداخل والخارج إلى العمارة. وسيرانها وتضع الدجاجة المشوية الشهية بين أيديهن..

وراحت تتلصص فلم تر أحداً، وقفزت السلم كالأرنب المذعور ثلاثاً.. وهي تنتفض من شدة الفزع...

وعلى باب شقتها وضعت الدجاجة الملفوفة بالورق الأبيض لفاً محكماً.. خشيت أن تفتح الباب وتضعها على المنضدة في البهو أن تسمع حماتها صرير المفتاح.. ونزلت على مهل لتسترد بعض نفسها.. فقد كانت ترتجف من أخمص القدم حتى منابت شعرها...

وتحايلت أن تظهر أنها عائدة لتوها من الخارج، وبعد أن ألقت السلام احتضنت طفليها واستأذنت حماتها في الصعود لأنها تشعر بآلام في قدميها.. فصاحت حماتها :

– ماذا ؟ ألن تأكلي؟ عندك طبق «بيصاره» على المائدة هناك...

فلم تتردد في الجلوس والأكل حتى لا تولد الشك لدى حماتها، ولكنها لم تكد تغمس لقمتين حتى تركت الطبق وقالت وهي تمسك رأسها :

- أشعر ببعض الدوار، ولا رغبة لى فى الأكل الآن.

فأردفت حماتها قائلة :

- وهل ستكفيك هذه اللقيمات لتسد رمقك؟ ثم أن هناك ملابس متسخة عليك الدور فى غسلها الليلة.. أم ستتهربين؟

فأجابتها وهد تدفع الطفلين أمامها:

لا عليك سأشرب كوب شاى واستريح قليلاً، وبعون الله سأقوم بغسل الملابس كالعادة.

وتصنعت التعب وهى تسير نحو الباب بخطوات وئيدة، وما أن توارت عن الباب حتى حملت الطفلة وبيدها الأخرى أمسكت بالطفل وصعدت تجرى إلى شقتها.

وما أن وصلت إلى الدور الرابع حتى صعقت من هول المنظر أمامها، فقد رأت القط مشمش الضخم يتلمظ - قط سكان البيت المجاور - والورقة البيضاء التى لفت فيها الدجاجة بإحكام ممزقة إربا، والعظام المتناثرة تملأ بسطة السلم، وعلى الفور قفز القط إلى السطح...

ولم تقو قدماها على حملها فارتمت على السلم تحتضن طفليها ودموعها تتساقط بغزارة بينما معدتها تقرصها من ألم الجوع..

أشجان «نجلاء»

وقفت نجلاء بنت الثلاثة أعوام وعلامات الدهشة البالغة مرتسمة على قسماتها الصغيرة، وهى تحملق فى الكم الهائل من البشر حول طفل لم يتعد الشهر الثانى من عمره.. صغير صغير كالقطة الرضيعة، أبيض شفاف كلفة القطن الموضوعة فوق المنضدة فى ركن الحجرة.. يبكى بصوت «مسرسع» حاد ويرفس بيديه ورجليه وهى فى ذهول أن هذا الصوت العالى يخرج من هذه القطعة اللينة البيضاء التى فى حجم الأرنب...

أنهم يتوسلون لإطعامه، وهو يرفض بإصرار والأم المحرومة من اللبن فى ثدييها تحاول أن تقدم إليه اللبن فى زجاجة، وهو يرفض الزجاجة أيضا... ثم يجلبون أشياء متعددة من المطبخ، وأكثر ما لفت نظرها الطبق الكبير الملىء بالتفاح على المنضدة فى وسط الحجرة..

تريد واحدة، لكنها لا تستطيع مد يدها وأخذ واحدة دون أن تسمح لها ربة المنزل بذلك وربة البيت مشغولة عنها مع الآخرين بالطفل الرضيع... والشغالات ينهرنها ويدفعنها من طريقهن أثناء

دخولهن وخروجهن من الحجرة.. ولا أحد يدرى بها.. ولا أحد يعطيها شيئا لتأكل.. فمنذ حضر هذا الطفل مع أمه وأبيه بطل التدليل والقبلات التى كانت تتلقاها ممن فى المنزل، وبطل إغراقها بالطعام والحلوى دون أن تطلب...

لو كانت أمها الآن هنا لاستطاعت أن تطلب منها دون خوف أو وجل، أمها تعمل فى البيوت ولا تراها إلا فى الليل، تحضر لتؤدى بعض مطالب أهل البيت، ولا تستطيع هى أن تقترب منها إلا بعد أن تنتهى تماما من المطالب، ثم تأخذها وتعود بها إلى حجرتهم الرطبة تحت الأرض لتستغرق فى النوم، ومنذ الصباح الباكر تأتى بها لتسلما لشغالة البيت.

منذ وعت نفسها وهى ضيفة على هذا البيت وأمها كانت تعمل فيه منذ يفاعتها وبعد أن تزوجت - وكانت فى سن كبيرة - من رجل شيخ.. لم تنجب سواها.

أمها ليس لها أهل، وهى تعتبر من فى هذا البيت، أهلها.. وهم يحبونها ويحبون نجلاء ويجلبون لها كل ما تطلبه.. كانت الطفلة المدللة فى هذا البيت الكبير، لم يكن فى البيت صغير سواها.. محبوبة مقربة منهم جميعا تلبس أحسن الملابس التى تجلب لها من الخارج مع كل من يسافر ويعود... تجلس معهم على المائدة وتأكل من أطايب الطعام مما يقدمونه لها.. والكل فى البيت وضيوفهم

يلاطفون نجلاء، ويلاعبونها، ويحضرون لها الشكولاته والملابس فى كل المناسبات، لكن هناك حدوداً لكل شيء، فإذا مرضت لا يرقدونها على السرير مثلهم، بل على الأرض يضعون لها حشية صغيرة ويرقدونها فوقها.. فالفراش للأسياد وهى ابنة الشغالة، وإذا زارهم أناس غرباء، عليها أن تذهب إلى المطبخ مع الشغالة التى كثيرا ما تضربها وتغيظها وتخطف منها الحلوى التى فى يدها.. فإذا صرخت واستغاثت سدت لها فمها بيدها الغليظة وأخافتها «بأمنا الغولة» و«العفريت أبو ديل». فتسكت على مضض خوفا ورعبا من أن تسلمها الشغالة لهما...

طلبت من أمها كثيرا أن تأخذها معها إلى حيث تذهب، تريد أن تكون بجانبها، تريد أن تشعر بحنانها، حنان الأم وحبها، حتى ولو لم تأكل أطايب الطعام هذه، لكن أمها تربت عليها وتحتضنها وتقبلها بشغف وتتوسل إليها أن تكون فتاة هادئة مطيعة حتى يحبها أهل البيت لأن من تعمل عندهم - فهى تعمل فى أكثر من بيت فى اليوم - لا يريدون صغارا وهى لن تستطيع الالتفات إليها أو رعايتها، وربما أبعدوها عنها ووضعوها فى المطبخ مثلا، وطلبوا منها ألا تتحرك حتى لا تشغل أمها عن عملها... أما هنا - فى هذا البيت - فأنت معززة مكرمة، يحبونك ويعطونك كل ما تريدين...

وتسكت الصغيرة فى حزن، فهى تفضل الوجود مع أمها حتى ولو

حرمت من كل شيء ، على البعد عنها ولها كل ما تطلب.. إنها تحب آل البيت لإحساسها بأنهم يحبونها، لذا تتصرف وتلعب وتقفز وتطلب دون حرج كل ما تريده...

ولكن منذ حضر هذا الطفل مع أمه وأبيه، تغير كل شيء.. أصبح هو المفضل المعزز والكل فى خدمته.. بينما تركت هى للشغالات فى المطبخ خوفا على الطفل منها، فإذا حاولت الاقتراب منه فزعت فيها سيدة البيت! ولم يحدث يوما أن ضربتها، لكنها ضربتها حينما أمسكت بيده تحاول أن تقبلها وهو فى سريره، ورفعت سبابتها فى وجهها محذرة إياها من العودة إلى مثل هذا الفعل وإلا منعتها من دخول الحجرة وتركتها مع الشغالة، لقد كانت تريد أن تقبله، تقبله فقط ، لم تضربه أو تقرصه! فلماذا يعاملونها هكذا ؟ أحيانا يقبلونها! وأحيانا أخرى يرفضونها! ولا تستطيع الاقتراب من أمها طالما هى مشغوله هنا ليلا فى قضاء حاجتهم وأخيرا... أخيرا جدا تحملها على كتفها لتعود بها إلى حجرتها بعد أن يكون النعاس قد ملأ جفونها وتضعها فى الفراش وتنام بجانبها... إن أحلى أوقات عمرها هو الوقت الذى «تكمش» فى حضن أمها ليلا، وكم تمنت أن تظل الليل كله مستيقظة لتتمتع بهذا الحب الدافئ، واضعة ذراعيها حول عنق أمها، ملتصقة بها، بيد أن النوم يغلبها على أمرها حتى تجد أمها توقظها فى الصباح الباكر وتأخذها الى هذا البيت...

أحيانا تحاول أن تجلس فى حضنها إذا حضرت يوماً مبكرة.. كم تمنت ذلك لكن أمـهـا دائمـا مشـغـولة، دائما تطلب منهـا أشيـاء، دائما تجرى من حجرة الى أخرى تلبى مطالب هذه وتلك كأن البيت قد خلا من الشغالات بمجرد وصول أمها، ويتركون كل العبء عليها حتى أنها لا تستطيع مجرد التحدث معها... كل الأطفال - خصوصا هذا الطفل الصغير - يتمتعون بأمهاتهم إلا هى... والدها رجل غليظ فظ يشتم أمها ويضربها ويطلب منها كل قرش حصلت عليه فإذا رفضت أقسم عليها بالطلاق، ونجلاء لا تحبه وتطلب من أمها أن تتركه، لأنه يقول لها ضيعها فوق اللحاف على الأرض ويتشاجران بسببها، وأمها ترفض بإصرار أن تنيمها على الأرض وهو يتشبث برأيه، وأخيرا «يزغدها» بقبضة يده ويترك لها الحجرة ويذهب لينام عند ابنه المتزوج، وفى الصباح غالبا ما تجده هو فوق اللحاف على الأرض وأمها بجانبها فوق السرير ... وتجلس نجلاء تفكر مثل الكبار... كل ما تتمناه ألا تفارق أمها... وهى تجلس لتخطط كيف تهتدى الى عدم مفارقة أمها.. وأخيرا هداها عقلها إلى طريقة مثلى.. فما أن حضرت أمها ليلاً حتى أخذت تصرخ طالبة منها أن تدخل معها إلى الحمام لأن مغصا يكاد يفتت مصارينها... وانفطر قلب الأم وهى تراها تبكى وتتلوى وفزع كل من فى البيت وأفلحت أن تختلى بأمها أكثر من ربع ساعة فى الحمام وهى تحتضنها وتضع

رأسها على كتفها بينما الأم جالسة القرفصاء أمامها... وكررت اللعبة أكثر من ليلة، لكن أهل البيت اكتشفوا حيلتها وتركوها فى الليلة الثالثة تبكى وتتلوى دون أن يدعو أمها تقترب منها، وحينما أيقنت أن لا فائدة من العويل، وأن أمها لا تبالى بها.. تكومت فى ركن المطبخ واضعة خدها على كفها كما تفعل أمها حينما يضربها أبوها ولا تستطيع للطماته دفعا...

وسألت أمها تلك الليلة وهما فى طريق العودة إلى حجرتهما لماذا يتركون هذا الطفل مع أمه؟ لا تتركه لحظة، وتعطيه كل ما يحتاجه، لماذا لا يتركونها هى أيضا معها؟

فأجابتها أمها :

- لأنه صغير لا يفهم.. ولا يستطيع لنفسه شيئا...

فقالت نجلاء فى تساؤل :

- وهل كنت تفعلين معى وأنا فى مثل سنه - مثلما يفعلون معه ؟

- طبعا لم أتركك دقيقة بمفردك :

- والشغل ؟ كيف كنت تذهبين إليه، وأنا معك ؟ هل كانوا يقبلونني؟

- طبعا لأنك كنت صغيرة وفى حاجة إلى .

- وهل كنت ترضعينني من صدرك أم من الزجاجة؟

- كنت أرضعك من صدرى...

فتنهدت نجلاء كأن على قلبها رحى وقالت :

– ليتنى لم أكبر.

وأحست أمها : أن قبضة تعصر قلبها وسألتها :

– لماذا يا حبيبتى؟ ليس لى غيرك فى هذه الدنيا أعيش وأعمل من أجلك لكى أوفر لك القرش الذى ينفعك فى مستقبل حياتك .

فقالت نجلاء وكأنها تعلم أن أمها تكذب عليها :

– أن أبى يأخذ منك كل النقود التى تحضرينها..

– كلا أنى ادخر باسمك الكثير من النقود فى دفتر توفير، وحينما تكبرين ستعرفين كل شىء.. وهؤلاء الناس الطيبون الذين أتركك عندهم يساعدوننى فى الاحتفاظ بهذه النقود يجب أن تحبيهم يا نجلاء لأنهم أحن عليك من والدك.. انظرى كيف يشترون لك الأثواب والأحذية وكل شىء جميل دون أن يتقاضوا منى مليما واحد...

– وهل سأذهب إلى المدرسة حينما أكبر مثل بنت الست عطيات؟

– طبعا سألحقك بالمدرسة القريبة واشترى لك كل ما تشتهين وستكونين أحسن بنت فى الفصل.

وسكتت نجلاء قليلا ثم سألتها :

– متى ؟ متى يكون ذلك ؟

– بعد ثلاث سنوات.

فأجابتها على الفور :

- مت يا حمار ...

وانهمرت دموع أمها من شدة الضحك وهى تسألها :

- من علمك هذه الكلمات ؟

فطمت شفتيها بامتعاض وهى تقول :

- البنت فهيمة الخدامة، دائما تقول هكذا، وتقول لى حينما أكبر سأشتغل مثلها...

فاحتضنتها أمها وهى تقول :

- لا تصدقيها إنها كاذبة، أبدا لن تعملى مثلها سألحقك بالمدرسة بمجرد أن تبلغى السن، لماذا أذن أكد وأكدح ؟...

فرفعت نجلاء عينيها إلى أمها فى تساؤل غريب :

- صحيح يا أمى سأذهب إلى المدرسة؟ صحيح لن أعمل مثل فهيمة؟ فاحتضنتها أمها بعنف وأقسمت لها بكل عظيم أنها ستلحقها بالمدرسة وعليها أن تقول ذلك لفهيمة اللئيمة حينما تراها باكر صباحا... ونامت نجلاء تلك الليلة ملء جفونها - وهى تحتضن العروسة الكبيرة التى أحضرها لها البيه مصطفى من إحدى جولاته فى البلاد الأوربية - قريرة العين بأنها ستذهب إلى المدرسة.

الحصان الأبيض

أغمضت عينيها واستغرقت فى حوار طويل دار فى دخيلة نفسها.. حوار رجع بها إلى سنوات وسنوات... ولم تلبث أن فتحتهما على صوت التليفون... واعتدلت فى جلستها فإذا السكرتيرة تتبادل الحديث مع شخص ما ... وأنصتت لحظات... ثم لفتها دوامة الذكرى إلى التهويم، فاسترخت فى كرسيها الفخم الضخم وتركت لخواطرها العنان مرة أخرى..

هل حققت ما كانت تصبو إليه ؟ وإلى أى مدى هى سعيدة فى حياتها؟ ورجعت إلى طفولتها الباكرة.. لم تكن قد نالت من التعليم سوى النذر اليسير.. صغرى أخواتها الخمس، لم تنجب أمها الولد.. لكنها أنجبت خمس جميلات يشار إلى كل منهن بالبنان... حياتهن أقل من المتوسط.. والذهن مشغول دائما بتدبير لقمة العيش لهذا الكم من الصغيرات.. وما أن تشب إحداهن عن الطوق ويتقدم لها من يرغب فى الزواج، حتى يزوجها ليرفع عن كاهله أعباء الانفاق عليها..

كان المتقدمون لبناته من متوسطى الدخل.. فعدم اقتدار الأب على تجهيز بناته جعله يقبل على الفور من يخليه من هذه المسئولية الضخمة.. لذا اكتفى بمن يستطيع أن يأخذهن بملابسهن، ويقمن أما لدى أهل الزوج، أو فى مسكن مستقل على قدر ما تسمح ظروف الزوج...

وتزوجت ثلاث منهن، الثلاث الكبريات على هذا النمط.. واستقلت كل منهن فى بيتها حسب ظروف الزوج.. ولم يبق إلا الصغيرتان، وهما أجمل البنات وأرشقهن وأكثرهن تعليماً.. فقد وصلت كل منهما إلى ما بعد الإبتدائية بسنة أو سنتين...

كان جمالهن من النوع الذى يجذب أعتى الرجال.. كانت كل منهما نمطا متفرداً بذاته.. كل منهما تريد أن تثبت نفسها.. أن تجعل لها موقفاً فى الحياة.. أن تتفوق على أختها، لكن كيف؟ كيف وهما لا تملكان ما تتصديان به لهجمات الزمن؟!..

ومع كل ما حاولتا، تزوجت الكبرى برجل لم يكن حاله بأحسن كثيرا من حال أزواج أخواتها... والأنكى من ذلك أنه أخذها لتعيش وسط أهله.. فكانت حياتها جحيما لا يطاق..

وصبرت، لماذا؟ لا تدرى ! وعاشت لتخدم أهل زوجها وأخواته اللواتى كن يغرن منها غيرة ضارية لا تقف عند حد... إلا أنها لم تلبث أن تمردت وتركت بيت زوجها لتلجأ إلى بيت أبيها، وتعود كما

كانت تنتظر أن يتحسن حظها...

أما هى صغراهن، فقد أبت إلا أن تتزوج من شخص تقتنع به.. شخص ينقلها من هذا الفقر المدقع إلى جنة الخلد التى وعد الله بها المتقين.. وهى ليست أقل ممن تراهن فى الأفلام أو على شاشة التليفزيون.. بل ربما تفوقهن جمالاً خصوصاً إذا أتيح لها الملبس كما هو متاح لهن... وكانت أختها تضحك منها ومن أحلامها، وتعيرها بأنها ستظل بدون زواج حتى تصبح عانساً... وأن أحدا لم يتقدم لها حتى هذه السن.. ولم تكن قد تعدت السابعة عشرة ! بيد أن أخواتها تزوجن جميعا فى الخامسة عشرة.. فكان سنها يعتبر بالنسبة لهن، سن العنس!! ولم يكن الشجار ينفض بينهما إلا ليبدأ من جديد، وكانت الأم دائما مع الكبرى ! كذلك الأخوات المتزوجات! كن يلمنها على هذه العنجهية، والتطلع إلى أعلى، ورفض كل من يتقدم ولو أنهم أقل من أصابع اليد الواحدة.. ومع ذلك لم يكن فيهم من تصورته فتى أحلامها..

أخيراً تقدم لها الفارس المأمول، شاب من علية القوم، رآها فى الطريق وبهره جمالها.. فظل يقتفى أثرها حتى عرف بيتها.. ولم يتراجع .. حضر فى مساء اليوم نفسه وتقدم لوالدها، وكان على عجلة من أمره، فأحضر لها كل ما يلزمها من الثياب... وأخذها معه قبل يوم الخطبة ليدخل بها أرقى المحلات ويشترى لها ثوب الخطبة...

وبعدها عاشت شهرا كمن تعيش فى الأساطير.. تخرج معه يومياً ليتحفها بكل جميل وغال من الأزياء والمجوهرات وكل ما لا يخطر على بالها... حتى أصبحت كإحدى الأميرات وقد تحقق حلمها إذ أخذها أميرها بعد ذلك على حصانه الأبيض إلى قصره المسحور وكبتت بذلك أخواتها جميعا وجعلتهن ينظرن إليها بحسد وكمد، ويتحسرن على حظهن العاثر.. خصوصاً أختها التى تكبرها، فقد كانت تجتر آلامها وخذلانها فى الزواج...

وسرحت أميرة وهذا اسمها.. سرحت بخاطرها فى أيامها الخوالى.. لم تكن تجاوزت السابعة عشرة إلا بشهرين، وإذا بها تجد نفسها انتزعت من بيت والدها الذى يحوطها الفقر، إلى هذا القصر الفخم الضخم الملىء بالخادمات ثم السفرجى والطباخ... وما عليها إلا أن تأمر.. تشير بأصبعها.. وكل شىء يجاب لها فوراً...

وجدت نفسها فى عالم آخر.. عالم كل شىء فيه بالميعاد ! الأكل، النوم، الاستيقاظ، والأسوأ من كل ذلك أن لها معدلاً محسوباً من الطعام لا تتجاوزه لئلا يزداد وزنها، وزوجها يريدها كالدمية، كإحدى التحف التى يشغف بجمعها واقتنائها!...

لكن ما هذا ؟!

كانت لا تدرى مما يفعل بها شيئاً فعليها أن تغتسل يومياً، وتدلكها مختصة بأرقى أنواع الصابون والعطور تضعها لها فى

البانيو، ثم تدهنها بالمعاجين وتضمخ لها جسدها فى كل موضع حتى أظافر قدميها، كان يحضر لها من تصنع لها «البديكير والمايكير»...

لماذا كل هذا التعب والجهد الذى أرهقها؟ أتستحم كل يوم؟ أحياناً كانت تخشى على بدنها لئلا يذوب من شدة التدليك وهى مسترخية فى البانيو أكثر من ساعة.. بل أحيانا كان يمسك الساعة لئلا يغافلونه فى خمس أو عشر دقائق..!!

لقد أرهقها فى الحمام ! وبعد ذلك يحرمها من الطعام الشهى لئلا يزيد وزنها عن ٥٤ كيلو رغم طولها الذى يربو على المائة وسبعين سنتيمترا... لماذا يرهق الطباخ والسفرجى إذا كان يزن لها مقدار ما تتناوله من الطعام بميزان الذهب؟! إنه يضع الميزان بجانبه على المائدة ويعطيها من كل صنف مقداراً هزيلاً لا يشبع طفلاً صغيراً... وقد جعل عليها جواسيس من الخدم حتى يمنعوا عنها أى شىء تمد إليه يدها وهو فى الخارج... وقد حرمها تماماً من أكل الشكولاته! تراها أمامها.. تقدمها للزائرين، أما هى فلا .. ولا قطعة! إنها تموت كمدا من أجل الشكولاته فقط ...

وهزت رأسها هزات متوالية وهى تستعيد هذه الأيام مغمضة العينين...

حينما كانت تعيش فى الفقر ولا تجد من النقود ما تشترى به

قطعة من الشكولاته الجيدة، بل تنظر إليها من بعد ونفسها تذوب حسرة ولوعة على التلمظ بقطعة منها.. أما وقد أصبحت تملك أفخر أنواعها، فهى أيضا محرومة من أكل قطعة منها، تماماً كما كانت فى أيام فقرها... بل هى تعيش ألعن من الفقر ذاته...

وفتحت أميرة عينيها تنظر إلى العلبة الفاخرة أمامها على المكتب مليئة بأنواع شتى من قطع الشكولاته، ولا رغبة عندها لأن تمد يدها تلتقط قطعة رغم أنها تحت يدها... ومصمصت شفتيها وهى تغوص فى مقعدها الوثير وتستعيد زمانها...

فقد تجرأت يوماً وأكلت قطعتين كبيرتين من الشكولاته غير عابئة بتحذير الخادم وتهديدها.. وكان أن وصل الأمر إليه فطردها من البيت طرده لذبابة... وحلف ألا تدخله.. طردها بثوبها الذى عليها.. لم يعطها شيئا من ثيابها ومصاغها... وبعد ذلك أرسل خلفها ورقة الطلاق !!

كان شيئا غير معقول ولا مفهوماً بالنسبة لها فى ذلك الوقت..

كم كان عصيبا عليها هذا اليوم الذى تسلمت فيه الورقة.. لكن سرعان ما شعرت بالراحة لخروجها من هذا السجن الذى فرض عليها، وهى فى سن تتمنى فيه أن تنال كل ما تطلب وما تشتهيه نفسها...

حقيقة أنه كان يأخذها يومياً إلى حفلات الأصدقاء، لكنها لم تكن

تعرف كيف تتحدث معهم، وهى لا تفقه من أحاديثهم شيئاً.... وكانت ترى الرجال ملتفين حولها يتغزلون فى جمالها وليس أمامها سوى الابتسام !

كل يوم كان يأخذها إلى فيلم أجنبى، لم تكن تدرى له معنى... ويوماً طلبت منه الذهاب إلى فيلم عربى، فنظر إليها نظرة ملؤها السخرية جعلتها تغض الطرف ولا تحير جواباً...

وفتحت عينيها تتبين واقعها... ثم لم تلبث أن هومت لتغوص فى عالم الزوج الثانى...

كان من أواسط الناس، على عكس الأول تماماً... أشعرها بأنوثتها فتدفقت ... تركها لتعيش على هواها، تأكل ما تريد، وتعمل أيضا ما تريد... وأحبته بعنف.. أحبته لدرجة أنها كانت مستعدة أن تركع تحت قدميه وتقبلهما دون أن تستشعر حرجاً... لكنه لم يلبث بعد عامين أن طلقها متعللاً بأنها لم تنجب ...!

وشعرت بألم وحزن لم تشعر بمثلهما فى حياتها، لأن الأطباء الذين ذهبت إليهم من ورائه، قرروا جميعا أن ليس بها ما يمنع الحمل، أما هو فرف رفضاً قاطعاً أن يعرض نفسه على طبيب ...!

وعاشت بعد الطلاق فى انعدام وزن... كيف؟ ولماذا يمتنع هو عن الذهاب إلى طبيب بعد ما علم أن العائق ليس منها؟!

أمور تحدث لم تكن تعرف لها تعليلاً ولا تفقه لها معنى...

أخيراً وبعد طلاقين فى حياتها، وكانت أختها غريمتها قد تزوجت للمرة الثانية من شاب ناجح موهوب، وسكنت فى بيت جميل مؤثث بأفخر الرياش... أصبحت هى تقضى وقتها بين بيت أبيها وبيت أختها، والغيرة تأكل قلبها... أرادت أن تكون أفضل أخواتها، وها هى أتعسهن....

وجلست ليلة بطولها مع نفسها تعيد حساباتها..

إنها تعيش كالنبتة المتسلقة على غيرها.. كشجرة اللبلاب، متسلقة على أكتاف زوجها الأول ثم الثاني... حتى بلغت الرابعة والعشرين من عمرها.. لا تستطيع لنفسها شيئا... الآن يجب أن تعتمد على نفسها...

وقررت أن تبدأ من الصفر..

ذاكرت ثلاث سنوات الإعدادى فى سنة واحدة.. كانت تجلس الليل بطوله منكفئة على كتابها.. وامتحنت ونجحت..، والتحقت بمدرسة ثانوية ليلية، وكانت تنجح عاماً بعد عام...

وقررت أن تأخذ الثانوية العامة بمجموع يؤهلها للالتحاق بكلية الطب.. لتثبت لأهلها وللجميع أنها قادرة على صنع حياتها بنفسها لكثرة ما كانوا يضحكو منها.. وقررت أن ترفض أى شخص يتقدم لها لجمالها.. بل يجب أن يكون عقلها هو الذى يقود حياتها...

وتقدم إليها خلال هذا العام العديد من العرسان، ورفضتهم

جميعاً بلا استثناء... لكن أحدهم - صاحب شركة استيراد وتصدير - أصر على الزواج منها، وأصرت هى على الرفض، حتى تنهى دراستها الجامعية.. ولم يكن لوالدها أو والدتها أى رأى فى مستقبلها تركاها تصنع ما تريد...

ولم يتركها هذا الشاب، فظل يلاحقها فى كل مكان، ولما ظهرت نتيجة الثانوية العامة، ولم يكن مجموعها يسمح لها إلا بدخول كلية التجارة، أرسل لها باقة ورد يانعة، ومعها بطاقة كتب عليها : أنه يتشرف بإلحاقها مديرة إدارية لشركته متى انتهت من دراستها الجامعية؟ مكتفياً بمقعد رئيس مجلس الإدارة، وكانت قد قاربت الثلاثين من عمرها، ولم تمانع، تزوجته، وظلت طوال أربع سنوات تدرس بإلحاح حتى تخرجت بجيد جداً...

وأقام لها حفلاً رائعا، وسلمها مقاليد وظيفتها أمام الحشود التى كانت فى الحفل...

وفى وقت واحد سمعت صوت التليفون ونقراً على الباب.. ففتحت عينيها، فإذا الباب يفتح عن زوجها وابنها ياسرالذى لم يبلغ بعد السادسة من عمره، وصاح صوت:

هل يؤذن لنا بالدخول ؟

وابتسمت فى ترحيب، فدخل الزوج ليقبلها على جبينها بينما جرى ياسر إلى حجرها وطوق رقبتها بذراعيه وراح يقبلها فى

شغف...

ولم تخرج أميرة من تأملاتها وهى تراقب حركات زوجها حتى استأذن وخرج من الحجرة لأمر هام..

هل حقق ما كانت تصبو إليه ؟

ربما حققت جزءاً منه، أصبحت أحسن اخواتها وأفضلهن على الإطلاق وأغناهن بمراحل... لكن الجزء الأكبر وهو رغبتها فى التخرج طبيبة كان يحز فى نفسها كثيراً...

وصاح ياسر وهو يمسك وجهها بين يديه الصغيرتين وينظر فى عينيها صائحاً:

ماما .. أبلة سألتنا تحبوا تطلعوا إيه ؟

فسألته فى ابتسام :

وأنت يا حبيبى ماذا قلت لها ؟

فرفع يديه الاثنتين رلى أعلى ولوح بهما فى الهواء وهو يصيح :

دكتور طبعاً...

فضمته إلى صدرها ورفعت إلى سقف الغرفة عينين مغرورقتين بالدموع فى ابتهالة صامتة.

جبل الثلج العائم

سلط عينيه إلى خارج الشرفة.. ينظر إلى لا شيء.. وهو يحس أن عيونا ترقبه.. ترقبه من كل صوب.. تدينه.. تتهمه بالعقوق.. باللامبالاة.. بالانحطاط .. «بالرمرمة»، وإلا كيف يتصرف هذا التصرف الفظيع.. هذا التصرف الذى يدل على منتهى التبجح.. منتهى الأنانية.. منتهى عدم الإحساس بالمسئولية.. منتهى عدم التقدير لما بين يديه والإقدام على أكبر سقطة يمكّن أن يقع فيها رجل مثله، وفى مركزه.. وعلى هذه الدرجة من اليقظة والذكاء.. وليس فى عائلته كلها من تجاسر وارتكب مثل هذه الحماقة...

وراح يحدث نفسه فى مرارة :

إنهم لا يعلمون .. أغبياء.. سطحيون.. لا يمكن أن يشعروا بما أعانيه من عذاب.. من ألم.. من ضيق أفقها.. من تفاهتها.. من سطحية تفكيرها.. أيمكن لإنسان حساس أن يعيش مع امرأة كقطعة من الجليد؟.. بل كجبل الثلج العائم ؟!.

تحمل الكثير.. ضغط على أعصابه.. حاول أن يقترب منها.. أن يذيب البرودة التى تكتنفها.. دون فائدة..

تعرف كيف تجامل، كيف تبدو مثلاً فى الأدب الرفيع، فى طريقة المعاملة مع الآخرين.. ومعه أيضا للأسف الشديد!.. فهى «بنت ناس» نعم لا ينكر ذلك ... من الطبقة التى يقال عنها طبقة الذوات بحق.. والدها رئيس مجلس إدارة شركة لها وزنها.. والدتها من أعرق العائلات.. أخوتها وإخوانها متزوجون من أرقى العائلات.. كذلك العمات والخالات وأولاد الأعمام.. إلخ..

لا ينكر أن من بين هاتيك النساء سيدات مثقفات مهتمات بما يجرى فى العالم من أمور جادة وهامة، يعرف الإنسان كيف يتحدث معهن.. لكنه للحقيقة لا يعلم الداخليات.. دخيلة كل منهن فى بيتها، مع زوجها.. كما كانت الحال معه إلى عهد قريب..

نعم إلى عهد قريب.. كان كل ما بينهما يحدث داخل جدران بيتهما.. حتى ولداهما، لم يكن أحد منهما يدرى ما بين والديهما...

فيها النقيضان: أن تدارى تماما كل ما يمس كرامتها من قريب أو بعيد، حتى أنها تستطيع أن تتحمل أقسى ألوان العذاب دون أن يبدو عليها أى شىء إذا فاجأها ضيف بالدخول، أو على الأخص زائرة.. فإذا هى فى قمة المرح والترحيب، والهدوء...

والثانى حين ينفردان .. فهى قطعة من الجليد، تافهة التفكير..

اهتماماتها لا تعدو مظهريات بيتها وولديها.. أبداً لم يشعر أنها قريبة منه.. أبدا لم يحس أنه موجود فى إحساسها.. هو حلية كإحدى حليها الفاخرة تفخر به أمام الجميع: فى النادى، فى المناسبات، فى الحفلات.. وبعد ذلك تضعه فى مكانه من علبة مجوهراتها التى تحتفظ بها فى مكان أمين وتعود إلى حالتها الثلجية...

وما أكثر اللوامين..

ماذا تريد أكثر من ذلك، شابة تصغرك بأكثر من خمسة عشر عاماً، جميلة، آية فى النظافة، كل اهتمامها منحصر فى بيتها وأولادها وفيما تعده لك من طعام شهى وملبس ومظهر...

كارثته التى لا يعرف لها حلاً أنه يريد بجانب ذلك روحاً.. إنسانة يستطيع التفاهم معها.. يستطيع أن يجالسها فيحس بتلقائيتها، ويحس بنبض حياتها...

لكنه هو المخطئ.. هو الذى استمع إلى كلمات من حوله حينما فرشوا له الأرض بالورود: فتاة خام تستطيع أن تربيها على طباعك.. لم تتعد الخامسة عشرة إلا بشهور.. ستكون كالعجينة فى يدك تكشلها كيفما تشاء...

وأمها الشابة الجميلة كم أسعدتها هذه الزيجة: شاب ومركز محترم، وعائلة ممتازة، والبنت آخر بناتها، هكذا تتخلص من همها لتتفرغ لحفلاتها ونزهاتها وأسفارها... وماذا سينفعها العلم؟ أليست

ستتزوج فى آخر المطاف؟ فلماذا ترهقها بالتعليم الزائد، أليست هى قد تزوجت فى سن ابنتها هذه؟ ونجحت زيجتها وها هى تنعم مع زوجها بحياة رغدة، لا يرد لها مطلباً.. ثم كفى ابنتها ما تعلمته من لغة أجنبية فى أرقى المدارس منذ نعومة أظفارها، تستطيع أن «ترطن» بها وسط صديقاتها فى النادى وفى المجتمعات الراقية... ولابد أن زوجها بنضوجه سيعرف كيف يعاملها كما عاملها هى زوجها من قبل وكان بينهما من فارق السن ما يقرب مما بين ابنتها وزوجها...

وفرحت الصبية «ألفت» بالحفلات والزيارات والعرس الفاخر واستطاعت أن تكيد صديقاتها الصغيرات المبهورات بزميلتهن التى وصلت إلى سن النضوج بما تلبس من حذاء ذى كعب عال، يحلمن به جميعا لكن غير مسموح لهن بلبسه لصغرهن، وأثواب طويلة فاخرة.. ومجوهرات، وبيت وفرش وسيارة زوجها تغدو بها وتروح.. وأصبحت تتكلم كالنساء بلكنة لا يفهمن معناها.. وتخاطبهن من أعلى .. وتسفه انكبابهن على الدرس.. فهى منذ صغرها الباكر تكره الدراسة وتتطلع بشغف إلى يوم تتزوج فيه ويصبح لها بيت تستقبل فيه الزوار، وتتصرف مثل «مامى».

هذه هى زوجته.. زوجة «رشاد» الرجل المرح الذى يتصرف على سجيته.. ليس فيه من التصنع شيء.. يضحك من أعماقه حتى

يستلقى على ظهره ، ويروى النكتة بخفة ظل تلقائية.. ويكره التصنع فى القول والفعل إلى درجة التحريم...

زوجوها له ! وهو فى غيبة عن وعيه! كيف؟ لا يدرى! فقد اكتشف خلال شهر العسل أنها طفلة لكنها تتمثل بالكبار فى كل تصرفاتها: فى مشيتها، وحديثها، وإشاراتها.. فتبدو كما لو كانت إحدى دميات مسرح العرائس، تساس بخيوط غير مرئية.. فيضحك على غير إرادته، وشر البلية ما يضحك.. والمصيبة التى لم يعرف كيف يداويها أنها شديدة العناد لدرجة لا يمكن معها أن يثنيها عن شىء تريده حتى ولو كان هذا الشىء ضاراً بها.. فإذا حدث فعلاً وأضر بها.. فهى لا تقر بالواقع.. بل تتمادى! حتى وصل به الأمر أن يتركها تجنى ثمار غباوة تصرفاتها، فالحديث معها لا يجدى فقد قر فى ذهنها أنها بهذا الزواج أصبحت امرأة لها كل حقوق الزوجة بما فى ذلك قراراتها الخاصة التى تصدرها.. أليست «مامى» كانت تفعل ذلك ويوافقها «دادى» أيضا...؟

وقد ربت ولديها على نمط تربيتها... وكل نصيحة منه غير مقبولة لأنه تربية «رجعية» أما طريقة أولاد الذوات فغير ذلك تماماً.. لكنها لحسن الحظ أرادت لهما التعليم إلى آخر مداه ولعلها فعلت ذلك لأنها رأته موضة هذا العصر...

لم تكن ألفت - فى أول الأمر - تشعر بغياب رشاد كثيراً عن

البيت.. فهو غالباً ما يقضى معظم أمسياته فى الخارج حتى منتصف الليل، وهى فى شغل عنه بولديها..

وكبر الطفلان وانشغلا بدروسهما وأصدقائهما والذهاب إلى النادى... وأصبحت أمسياتها طويلة، تقضيها بمفردها، فالعرف السائد الذى تعلمته هو أن يكون معها زوجها حينما تذهب إلى المجتمعات أو السهرات وأحيانا إلى النادى أيضا... وهى لم تزل شابة وجميلة وتعرف كيف تلبس وتضع الماكياج، وتبدو غاية فى الروعة... فلماذا يهملها ؟!

وتفرغت لمحاسبته: أين كنت؟ ولماذا تأخرت؟

أسئلة لم يعتد عليها منذ تزوجها حتى أصبح يتصرف بمنتهى حريته، ومن الصعب جداً الآن أن يتراجع عنها، بعد أن رتب أموره كلها على هذا المنوال، وما زاد الطين بلة، أنها أصبحت تفتش جيوب سترته، وتشم رائحته عند دخوله إلى البيت ليلاً، وتسأله أسئلة عفوية أحيانا لا يستطيع الإجابة عليها...

وبدأت تشك فيه، وبذكائها الفطرى أدركت أن امرأة أخرى فى حياته.. وراحت تضيق عليه الخناق، هو يقسم أن لا سواها فى حياته، وهل جن حتى يكرر الخطأ مرتين ؟

وكثرت المنازعات بينهما وشكها لا يجد الدليل الدامغ، ولا تريد أن تبوح بشىء لأحد، فلاشماتة بها عدو حياتها الأكبر.. تستطيع أن

تتحمل حتى تضع يدها على جسم الجريمة.. لكنها لا يمكن أن تتحمل شماتة الأهل والصديقات...

وصديقاتها اللواتى كن منبهرات بها يوم زواجها، تخرجن جميعاً فى الجامعة، منهن الطبيبات والمهندسات والصحفيات والمذيعات، وكلهن متزوجات، وهى تنظر الآن إليهن فى حسرة مستترة، فليس فى حياتهن فراغ مثلها يقضينه فى اجترار شئون أزواجهن.. ثم أحاديثهن فى أمور لا تفهم هى فيها شيئاً.. ولا يشركنها معهن فى كثير من الأحيان.

وبدأت ألفت تجتر أفكارها: ماذا تفعل لو أن زوجها يعرف امرأة أخرى؟ وقادتها هذه الأفكار إلى الاقتراب من الجنون..

وابتليت بالأمراض، أمراض عضوية تستشعرها فى مفاصلها.. وفى تشنجات أصابعها.. وفى إحساسها بالاختناق.. وفى آلام تنتابها فى صدرها..

ومع أمها ترددت على الأطباء.. والكل أجمع أن ليس بها شىء.. إنما هى حالات نفسية وعليها بتغيير الجو، ولا بأس من السفر إلى الخارج لعدة شهور...

وحينما أطلعت رشاد على تقارير الأطباء، خيرها بين أن تسافر مع والدتها أو تذهب إلى النادى والنزهات مع والدتها أيضا، لأنه مشغول جداً فى أعماله، خصوصاً فى هذه الأيام...

وبدأت الإشاعات تنتشر حولها، إشاعات ضبابية راحت تنقشع شيئا فشيئا حتى عرف الجميع سر مرضها المتعسر الشفاء... وأنها ترجع باللوم والتقرير على زوجها أينما ولى وجهه...

أخيراً وقع المحذور واكتشف أنه متزوج بأخرى، وأنه أنجب منها ولداً وبنتا أيضا !

ياللكارثة...!!

هى يتزوج عليها ! هو يعيش مع أخرى أكثر من عشر سنوات الآن ! هى تصبح الزوجة القديمة! هى تشاركها أخرى فى زوجها! من تكون هذه المرأة التى فضلها عليها؟ بأى شكل يجب أن تراها...

وتحرت بطريقتها الخاصة، واستطاعت أن تعرف أصلها وفصلها.. وصدمت صدمة مروعة حينما علمت أنها سكرتيرته.. الفتاة «البلدى» التى رأتها مرة أو مرتين حينما اضطرتها ظروفها للمرور عليه فى مكتبه.. ولقد ألحقها بالعمل عنده لشدة حاجة أسرتها، ولكنه أشاد بشدة ذكائها ومهارتها الفائقة فى عملها ... وبعد ذلك لم يشر إليها من قريب أو بعيد...

استطاعت الخبيثة الداهية ابنة الحضيض أن تستولى عليه وتأخذه منها هى ابنة الحسب والنسب...

وبعد أن أوسعته توبيخاً خيرته بين أن يطلقها أو يطلق الأخرى وتلفظت بكلمات لم يعهدها فيها من قبل، ولم يخطر بباله أنها يمكن أن تقول هذا الكلام...

وأصبحت حياته جحيماً لا يطاق، فهو لا يمكن أن يطلق الثانية

لأن لديه صغيرين وفى حاجة إليه.. وهى فتاة مثالية، فيها دفء التعاطف.. لا برودة الثلج .. كل ما فيها تلقائى.. وهو يحبها فعلاً.. وفى الوقت نفسه لا يستطيع أن يطلق ألفت ويواجه العائلتين بهذا النبأ...

وأخيراً عرف الجميع، وما توقعه حدث بحذافيره، فأصبح مثار كراهية وهزء واحتقار بينهم.. وفكر أن يبرر فعلته، لكنه تأكد أن أحدا لن يقتنع بها .. فآثر الصمت.

وخلال إحدى زياراته معها لأداء «واجب» أحس بنظرات الجميع تتهمه بالعقوق، والكفر بنعمة الله.. ولم يجد أمامه إلا أن يسلط عينيه نحو الشرفة، ثم يقوم ويخرج دون استئذان...

وهكذا أصبحت هى الضحية مع هذا الخائن...

وما حيره أنها رضخت أخيراً للأمر الواقع، وسكتت عن طلب الطلاق لتذيقه المر ألوانا بما تغمره به من احتقار تفيض به كل نظرة منها وكل حركة وكل سكنة.

فهل كتب عليه أن يظل إلى آخر العمر وهى فى حياته مثل جبل الثلج العائم؟ جبل الثلج الذى يبدو للناظر من بعيد رائعا ينعكس عليه الضياء.. أما هو وحده فنصيبه منه ارتجاف البرودة والرعب المكتوم وضآلة رجل يسحقه الاحتقار الصامت.

هل سأعيش لأراك ؟!

حدق في الصورة، وكل أنملة في جسمه ترتعد !.. وراح يحدق ويحدق ، حتى غامت عيناه بدموع غزيرة.. لم يعن نفسه بتداركها ! فانهمرت تغرق وجهه، وتتساقط على قميصه الأبيض الناصع.. وهو لاه عن كل ما حوله! وعن موعد عمله الذى أزف !!

فمناسبة الصورة من أسعد أيام حياته ! فلماذا هذا العذاب؟ الذى يستشعره يمزق قلبه! ويفرى أحشاؤه!!

إنها الصغيرة الوحيدة فى عيد ميلاده الأول.. طفل ملىء بالحيوية والصحة .. وهو يجلسه على ركبتيه، ويحيطه بذراعيه، والطفل ينظر إليه فاتح فمه! وكأنما هناك حديث بينه وبين والده الذى كان يبادله النظرات فى صمت! وكل منهما ينظر إلى الآخر فى تساؤل ! وحب! ولهفة! وكأنما خلت الحجرة المليئة بالصحاب إلا منهما !!

لم ينس والده فى هذه المناسبة السعيدة أن يدعو الطبيب الذى كانت ولادته على يده.. فهو الذى قدمه إليه فى فخر، طفل أكبر جداً من المعتاد فى حجمه! استغرقت ولادته أكثر من عشر ساعات! حتى

اضطر إلى سحبه «بالعدة» لينقذ والدته من موت محقق!!

ففى إحدى المستفشات الكبيرة المجهزة الفاخرة فى لندن، ولد الصغير لوالده المصرى الجنسية، الذى يعيش هناك لأكثر من خمسة عشر عاماً، وأم مصرية، أين هى الآن !؟

وأخرجه من استغراقه الموجع، صوت يصيح من الجانب الآخر لحجرة المعيشة الواسعة، والتفت فزعا فإذا الصغير يصرخ بإنجليزية صحيحة :

– ساعدنى يا والدى !

وأسرع إليه يساعده فى تركيب لعبة معقدة، أحضرها إليه منذ يومين ...

ثمانى سنوات مضت على هذه المناسبة السعيدة ! ثمانى سنوات لم يدخر فيها الأب وسعاً فى عرض ابنه الحبيب على الأطباء المختصين! فما هى حالته التى حار فيها الأطباء، ولم يجدوا لها علاجاً ؟

فى بلد متقدم جداً فى الطب، مثل لندن، تتعرض المرأة الحامل منذ الشهر الأول لحملها، لجميع الفحوص الطبية، ليتأكد الأطباء أن الجنين ليس به عيب أو مرض، فإذا اكتشفوا أن به خللاً، يخير الآباء بين أن يستمر الطفل حتى الولادة، أو يتولون تخليصها منه، حتى لا يولد معوقاً، فيجنون عليه بحياة غير طبيعية، ويعيشان فى حزن

وألم!! وعلى مدى أشهر الحمل، أثبتت جميع الفحوص، أن الطفل سليم ليس به أي عيب !! طفل طبيعي ١٠٠٪..

وولد الطفل ولادة عسرة جداً، لضخامة حجمه! لكن في صحة جيدة، وعاش سنواته الأولى، حتى الثالثة من عمره، وليس به ما يستدعي القلق، بل هو طفل مرح، سعيد، دائم الضحك.. إلا أنه لا يتكلم قط ! حتى كلمه ماما وبابا، لا ينطقها !! الأمر الذي جعل والديه في منتهى الحيرة والخوف ! أن ينمو الطفل أبكم ! لكن الأطباء طمأنوهما، أن المسألة بسيطة جداً، وهناك من الأطفال من لا ينطق قبل الرابعة من عمره!

بيد أن تصرفاته، ومبلغ إدراكه للحياة من حوله، لا تتعدى طفلاً في الثانية من عمره! رغم بلوغه الخامسة !!

واستمرت الفحوص والاشعات المتوالية، على الرأس والجسم، وعلى كل صغيرة وكبيرة في محيط حياته، إلا أنهم لم يجدوا ما يستدل منه عن حالته غير الطبيعية ! ولم تستطع الأم أن تتحمل منظر فلذة كبدها، فسقطت صريعة مرض أودى بحياتها !! وتركت الصغير لولده المنكوب يرعى شئونه جميعاً !!

كيف ؟! والطفل ينمو نمواً مطرداً!! والأب يلازمه في جميع أوقات فراغه! يلقنه كل شيء: كيف يستعمل أدوات الطعام، وكيف يطلب الذهاب إلى دورة المياه، وكيف يقول شكراً إذا أعطاه أحد أي شيء،

أو قام له بخدمة! إلا أنه لم يستطيع بأى حال التفاهم مع الآخرين! وأحيانا يصل به الغضب إلى ضرب من أمامه، سواء كان كبيراً أم صغيراً!!

وحارب الأب، من سيرعاه بعد انتهاء إجازته الطويلة، وأثناء وجوده فى عمله؟

إنه يذهب منذ الثامنة صباحاً فى سيارة إلى المدرسة، ويعودون به فى الرابعة مساءاً ، لكن غالباً ما تتعارض هذه المواعيد، مع مواعيد عمل والده !

اضطر لطلب مربية، وفى هذه البلاد، إذا لجأت لمربية إنجليزية متمكنة، لن تجد إلا بالساعة، والأجر ضخم! وحالته المالية لا تسمح بذلك، وعمله يضطره أحيانا للمبيت خارج البيت! ووجودها المستمر أثناء الليل يكلفه مبلغاً باهظاً ! فرأى أن يستعين - من مكتب خاص بذلك، بفتاة أجنبية، هولندية، أو فرنسية، أو أسبانية ! يحضرن إلى لندن لتعلم اللغة الإنجليزية، ويعملن مربيات أو شغالات فى البيوت، إقامة تامة، مدى شهور ، أو عام، أو أكثر، حسبما يصرح لهن، ثم يرحلن إلى بلادهن..

ومر على الطفل كثيرات ! كلهن لا يتجاوزن السابعة عشرة إلى التاسعة عشرة! وكلما استراح إلى إحداهن، انتهى عقدها! ورحلت!!

لكن المشكلة كانت بالنسبة للأب، أكثر منها بالنسبة للطفل ! فقد

راح الأب يجلب إلى البيت أطعمة لا حصر لها، يملأ بها الثلاجة والديب فريزر! وسوائل من أرقى الأنواع لتأكل المربية وتشبع وتطعم الطفل ! إلا أنهن كن من عائلات فقيرة، محرومات! وما وجدن أنفسهن، وكل شيء متاح لهن، دون رقيب، أو حسيب، حتى رحن يأكلن بشراهة ! ويستضفن صديقاتهن ! ويطعمن الطفل أى شيء !!

وتخرج واحدة، وتأتى ثانية، والأب يأمل أن تكون أفضل من سابقتها، فإذا به يكتشف أنهن سواء!!

أخيرا وصلت فتاة فرنسية، فى التاسعة عشرة من عمرها، لا يتجاوز وزنها ٥٥ كيلو جراماً، وأبدت شهامة وعناية تامة بالطفل وشئون البيت، على غير سابقاتها، اللواتى كل عملهن كان ينحصر فى الطفل، أما شئون البيت فمن عمل الأب !!

وفرح بها جداً، خصوصاً وأن الطفل كان منتظماً فى إحدى مدارس المعوقين، وفى هذه المدارس اللندنية، يجد الأطفال - من هذا النوع - عناية منقطعة النظير، تحضر له سيارة خاصة به، السواق والحاضنة، فى الساعة الثامنة صباحاً، ويعيدونه فى الرابعة عصراً، فتتسلمه المربية، وتقدم له كوب عصير، وفى السابعة مساء، تقدم له العشاء، وتعطيه حماماً، وتضعه فى فراشه فى تمام الثامنة، وفى الصباح، توقظه فى السابعة، وتعده للذهاب إلى المدرسة، بعد أن يتناول إفطاره، وفى المدرسة يقدمون لهم وجبة غداء دسمة...

أما هى، فلها حجرة خاصة، مجهزة بكل أدوات الراحة، حتى التليفزيون الملون! موضوع أمامها فوق التسريحة !

ومضت الأيام، والأب قانع بهذه المربية، رغم شدة شراهتها! وكثرة صديقاتها المترددات على البيت ، نهاراً ، أو ليلاً!!

وفى مدينة كلندن، كل شىء مباح ! والفتاة منذ صغرها، لها مطلق الحرية فى حياتها الخاصة !

وفى إحدى الحفلات الصاخبة التى تقام هناك، التقت فتاتنا الفرنسية، بفتى إنجليزى فى العشرين من عمره، وتعلق كل منهما بالآخر، لا يستطيعان البعد عن بعضهما يوماً واحداً !!

وكان من الضرورى أن تراه كل يوم ! فأصبحت - فى أيام وجود الأب - تخرج لملاقاته بعد أن تضع الطفل فى سريره، وتعود فى الرابعة صباحاً ! لتدخل بمفتاحها الخاص ! وتستيقظ فى الصباح لتقوم بمهام الطفل حتى تسلمه للسيارة، ثم تدخل حجرة نومها ولا تستيقظ قبل الواحدة ظهراً أو بعدها! لتأخذ حمامها، وتتناول غداءها حسبما تشتهى ! وفى الأيام التى يبيت فيها الأب فى عمله، يأتى إليها صاحبها، ليقضيان سهرتهما فى البيت !! وتقدم له ما لذ وطاب، على حساب الرجل المنهك فى عمله !!

وحدث أن زارته والدته فى إجازة صيفية، وما أن رأت هذا الحال، حتى أصابها فزع من الفتاة التى أصبحت فى ضخامة الفيل من

كثرة ما تتناول من طعام ! غير عابئة برشاق بنات هذا الجيل!! فقد أخبرتها - في جلسة صريحة - أنها حضرت ووزنها لا يتجاوز الخامسة والخمسين كيلو ! والآن وزنها ثلاثة وثمانون كيلو ! وهي تحاول - دون طائل - أن تخفض وزنها ، لأن صديقها لا يريدها بهذه الضخامة !!

وليت الأمر اقتصر على الطعام، فقد رأت الصغيرة اللاهية فرصة وجود الأم، فتركت لها العناية بالطفل، وشئون البيت ! وراحت تتدرج في الخروج إلى صاحبها، حتى وصل بها الحال، أن تخرج في الواحدة ظهراً، بعد أن تأخذ حمامها، وتتناول غداءها، ويمر عليها بسيارته، لتعود في الرابعة صباحا !!

ولجأ الأب إلى مجلس الحي ، يطلب حماية ابنه بوضعه في مدرسة داخلية، ترعى شئونه، لأن والدته لا تستطيع خدمة الولد، والمربيات غير جديرات بهذه المهمة.. وهو في عمله غير قادر على الجمع بين شئون البيت والطفل، ومهام عمله.. وبعد أن نفد صبره من تصرفات المربية - غير الملتزمة - اضطر لطردها.

وقامت الدنيا، ولم تقعد ! ففي هذه البلاد الراقية، رعاية الأطفال المعوقين، أمر تهتم به الدولة اهتماما خاصاً، وتردد على البيت رجال ونساء من مجلس الحي، ووزارة الشئون ، يستفسرون عن كل صغيرة وكبيرة عن الأب وعمله ومرتبه وحالة الطفل، والمدرسة التي

ترعاه...

فالمدرسة التى طلب الأب أن يضع ابنه فيها، لا تقل مصروفاتها عن ٦٥٠٠٠ جنيه سنوياً، يقوم بدفعها مجلس الحى.. وبها ثمانية وعشرون طفلاً، فى حالات متقاربة، ولا يقل سن الطفل - حين الالتحاق - عن عشر سنوات، والمقيمون على رعاية الاولاد والبنات ثلاثة أمثال التلاميذ عدداً !! والاقامة دائمة حتى سن التاسعة عشرة!.

والطفل لم يتم التاسعة، لكن من يراه يظنه فى الثانية عشر ! والاجتماعات تتوالى ! والمشاورات تتم مع الأب ! ومع الأعضاء والمقابلات تحدث فى البيت، وفى مكاتبهم ! والبيت يموج يوماً بعد يوم بأنماط مختلفة من المختصين بهذه الشئون !

وبعد أخذ ورد استغرق أكثر من ثلاثة أشهر قبل الطفل مبدئيا حتى يعد له مكانا فى المدرسة.

ومنذ يومين، وصل الأب الرد، بقبوله نهائيا ، وهو - منذ ذلك الوقت - يعد له ملابسه، ويرتب له حقائبه، والطفل يلهو من حوله، غير عالم أنه سيفصل عن والده الذى يعبده، ولا يستطيع النوم دون أن يأخذه فى أحضانه ويقبله، حتى ولو عاد مع تباشير الفجر، فأول ما يفعله، يمر على حجرته ليقبله، فينتبه الطفل له، ويحتضنه بذراعيه الصغيرتين ! وهو يقول فى دغشة النوم :

جود نايت دادى أى مساء الخير يا أبى !

سيخلو البيت أخيراً من معبوده الصغير ! كيف سيتحمل ذلك ؟

المسألة ليس منها بد ! من سيرعى الصغير بعد سفر والدته ؟ ثم العناية به فى المدرسة ليس لها حدود، والطفل ينمو بسرعة مذهلة! والمربية الصغيرة لا تستطيع التحكم فيه ! وخطر وجودها معه منفردين، محتمل ! وفى استطاعته أن يراه فى أى وقت يشاء...

ولكن المدرسة تبعد عن مدينة لندن، أكثر من خمس ساعات ! ولن يستطيع الذهاب إليه أكثر من مرة واحدة فى الأسبوع ! كيف سيقضى الأسبوع بطوله، دون رؤيته ؟ وكيف سينام دون أن يلقى عليه التحية، وقبلة المساء ؟

وجلس فى مكانه مهموماً، والدموع تتأرجح بين مقلتيه، وإذا بالطفل يجرى إليه معانقاً فى حياء، وهو يصيح :

هل سنذهب إلى المدرسة ؟ هيا ، هيا يا والدى !

وكان يحب مدرسته الحالية، لدرجة الجنون ! حتى أن والده – فى أيام العطلات – كان يذهب به إلى نوادى وجدت خصيصاً للأطفال المعوقين...

وشد الطفل والده من يديه يحثه أن يسرع به إلى المدرسة ! وكان لهذه الحركة من طفله الحبيب ، بلسم يداوى به الجرح الغائر لفراقه...

وفى هذه اللحظة ، وقفت سيارة فارهة على الباب! وراح السائق يحمل أمتعة الطفل، وتبعه الأب وطفله، إلى حيث مقر ابنه الجديد، وهو يردد بينه وبين نفسه :

يا حبيبى ! هل سأعيش لأراك تمرح فى هذا البيت ، كعادتك ؟!

وفى إعـزاز وحب، ضـغط على يد صـغـيـره، بين أصـابعـه المتشنجة...

سيد العجيب

مد يده الصغيرة المتسخة، بقطعة من الحلوى الرخيصة يقدمها على استحياء، إلى السيدة الأنيقة الجالسة على مقعد، فى واجهة المحل، وأحست بحنان دافئ، وهى تنظر إليه فى عجب من لم تكن تتوقع مطلقاً مثل هذه الحركة الغريبة، وسألته وهى تتفرسه :

– ما اسمك يا صغيرى ؟

فأجابها والابتسامة الخجلة لم تزل تغمر وجهه :

– سيد .

فمالت إليه قليلاً وسألته :

– وما سنك ؟

– ست سنوات.

وتفرست فيه قليلاً، وهى تسأله :

– وهل تذهب إلى مدرسة ؟

فرفع رأسه الصغير، وقال :

– نعم، هناك فى الشارع الآخر.

- وفى أى عام أنت يا سيد ؟

- الفصل الأول الإبتدائى.

- وماذا تفعل هنا يا حبيبى ؟

- أساعد الأسطوات فى العمل.

وضحكت من أعماقها وسألته :

- ولماذا لم تذهب إلى المدرسة ؟

- نحن الآن فى عطلة آخر السنة.

ونظرت إلى حذائه الممزق المصنوع من القماش، وإلى سرواله المهرق، وقميصه المرقع، وما يعلو وجهه ويديه ورجليه من اتساخ، وسألته :

- وهل أرسلتك ماما لتساعد الأسطوات، وتجلب لها نقوداً ؟

فقال فى اعتذار :

- كلا ، ماما لم ترسلنى، لقد أتيت من نفسى لأتعلم منهم الصنعة، بدلاً من اللعب فى الشارع!

دهشت وسألته :

- وأين تقطن يا سيد ؟

فرفع رأسه ويده الصغيرة إلى فوق، وقال :

- أقطن الطابق الثالث من هذا المنزل .

- وهل لك أخوة ؟

– نعم ، اثنان أصغر منى ولد وبنتاً.

– وهل والدك موجود ؟

– والدى يعمل فى ورشة كبيرة !

– قل لى يا سيد ، هل أنت سعيد بهذا العمل ؟

وافترت شفتاه عن أسنان صغيرة بيضاء، وقال فى اعتزاز :

– طبعاً ! أتعلم صنعة، أفضل من اللعب فى الشارع !!

– وهل يعطونك أجراً على ما تؤديه من عمل ؟

– طبعاً !

ثم وهو ينظر إليها فى تساؤل :

– وهل سأعمل بدون أجر ؟!

وفى هذه اللحظة صاح أحد الأسطوات ينادى عليه ليجلب إليه شيئا من المحل، وأسرع سيد فى خطوات سريعة قصيرة، يلبى النداء، فإذا به يعود بزجاجة كبيرة مليئة بالماء، يقدمها للأسطى الذى رفعها إلى فمه يعب منها عباً، لشدة القيظ، ثم قدمها للسيدة يسألها إذا كانت تريد أن تشرب !! فشكرته فى تأدب، وطلبت منه سرعة إنجاز العمل...

كانت هذه المرة الأولى التى تلجأ فيها إلى هذا المحل، ففى خلال سيرها بالسيارة، وقع فجأة «الشكمان» ، ودلها المارة على دكان الأسطى «متبولى» الرجل الطيب المعروف فى تلك المنطقة، وأسرعت

إليه، وكانت الساعة قد قاربت على الثانية عشر ظهراً، والحرارة لافحة، فوضع لها مقعداً داخل المحل، وبعد الكشف على السيارة جيدا، اتضح أنه يجب تغيير «الشكمان» كله، وكان عليها أن تجلس ما يقرب من ساعتين، حتى يتولى الأسطوات تغييره، ولم تجد مفرا من الجلوس، وهى التى كانت فى طريقها لأداء مهمة عاجلة، رأت أن تؤجلها وتمكث بجانب السيارة لأنها غريبة عن هذه المنطقة.

وأسرع سيد يلبى الطلبات، وبين الحين والآخر، يأتى إليها ليسألها فى ابتسامة عذبة، إن كانت تريد مشروبا : كوكا، أو قهوة، أو شاى! وقد ملأها العجب لهذا الطفل الذكى، الذى على أدب وذوق وفهم، قلما يوجد فى مثل هؤلاء الأطفال !! ورأت أن تحييه، رداً على تحيته لها، فمدت إليه يدها بمبلغ صغير من النقود، فاعتذر فى أدب ! ولكنها ألحت، فأخذه فى استحياء شاكراً ! وتركها ومضى.

وشغلت نفسها بمتابعة الأسطوات، وهم يعملون بهمة فى خلع بطارية السيارة، وتركيب المواسير، وإذا بسيارة مرسيدس تأتى مسرعة، وينزل منها سائقها ليعطى أوامر لصاحب المحل أن يترك الأسطوات كل شئ فى أيديهم، ويبادرا بتصليح سيارته فورا، لأن صاحبها أحد اللواءات فى البوليس !!

ورفض صاحب المحل فى إصرار أن يتخلى العمال عما فى أيديهم، وطلب منه أن ينتظر حتى ينتهوا، لحين يجئ دوره، لكن

السائق احتد عليه، وهدده باحضار الشرطة، فما كان من صاحب المحل إلا أن أمسك بقطعة من الحديد، وهجم بها على السائق، يريد ضربه على أم رأسه، وهو يسب ويلعن، وقد تولاه غضب جامح !

وفى مثل هذه الأحياء الشعبية، الناس فيها كعائلة واحدة، إذا بالشارع الضيق، يمتلىء إلى آخره بالناس، أصحاب المحلات من حوله، كل يحاول أن يمنع جريمة لابد أن تقع !!

فالكرامة أهم شىء فى عرفهم، وأن يتعدى شخص من خارج المنطقة على ابن منطقتهم، أمر لا يغتفر! والحرارة لافحة، والنفوس مستثارة، والعمل على قدم وساق لسرعة إنجازه.

واستطاع الناس بجهد الإخلاء بين صاحب المحل والسائق، مفسحين مكاناً للسائق يعود بسيارته للخلف، وينطلق بكل سرعته، كأن فى أعقابه الشيطان، غير مصدق أنه نجا من موت محقق ...

وانفض الشغب، وعاد الشارع إلى هدوءه بعدما رجع كل منهم إلى محله، وعاد العمال إلى السيارة ينهون عملهم، ورجعت السيدة إلى مكانها من المحل بعد ما هدأ من روعها العمال، وقد رأت بعينيها سيارتها وسط المعركة، واعتقدت أنها لا محالة ستتحطم تماماً..

وما أن استراحت على المقعد، ورفعت وجهها، إلا ووجدت سيد يجرى إليها، وفى إحدى يديه زجاجة كوكا وفى اليد الأخرى كعكة بالسكر من كعك العيد ! قائلا فى عذوبة لا حد لها :

– لابد أن تشربى هذه! وتأكلى الكعكة !

ومنعت نفسها بعنف أن تأخذه بين أحضانها، وتغمره بالقبلات، لكنها لترضيه، أخذت الزجاجة وأعطته مبلغاً طيبا من المال، فمد يده الصغيرة المتسخة بالكعكة، وهو يقول فى توسل :

– إنها ناعمة ولذيذة من صنع أمى، ليست من السوق، ذوقيها ستعجبك !

فربتت على ظهره فى حنان دافئ، وقالت :

– لست جائعة يا سيد ، أعلم أنها لذيذة، تناولها أنت بدلاً منى..

فجلس على عتبة الدكان وراح يتناول الكعكة فى هدوء وهو يخالسها النظر من طرف عينيه، ووجهه مفحم بالسعادة ! فسألته فى ود :

– هل أنت سعيد يا سيد ؟

فابتسم فى اغضاء، وهو يقول فى نبرة طفلية محببة :

– سعيد بوجودك !!

فأقبلت عليه باسمة وقالت :

– ما رأيك يا سيد أن اسميك « **سيد العجيب**»؟

فنظر إليها ضاحكاً، وقد امتلأ فمه بفتات الكعك، وقال :

– وأنا موافق !

فمدت له يدها وتصافحا فى ود من أبرم صفقة ناجحة !!

وقامت لتتسلم السيارة، ووقف يودعها، وقد أسرع يتناول الفوطة الصفراء، ويدور حول السيارة يلمعها بعناية، رافعاً لها يده الصغيرة بالتحية !! بجانب صاحب المحل.

رحلة الألف ميل

- هل أطمع يا آنسة ميرفت فى كراسة محاضرات اللغة الإنجليزية بسب....

ولم تدعنى أتم إذ قالت بصراحة ووجه ضاحك.

- بكل ممنونية يا أشرف.

وناولتنى الكشكول .

كان هذا بدء تعارفنا بعد عام كامل قضيته أراقبها دون أن تدرى - فمنذ أول يوم التحاقنا بالكلية شدت انتباهى بهدوئها المحتشم، وخفة ظلها ...

لم تكن جميلة ذلك الجمال المتعارف عليه.. بل إن شفافية روحها كانت تضفى على وجهها نوعا من الجمال الرزين الذى لا يبلى مع الزمن ... الجمال الذى ينبع من الداخل فيزداد كلما تقدم به العمر وليس الجمال السطحى يذبل بمرور الوقت ...

وكانما هذا السؤال فجر فى أعماقنا إحساسا مكبوتا ظل محتجزاً حتى لمسته هذه الكلمات فخرج إلى النور يتلمس طريقه

بيننا فتلقفه كل منا من جهته...

وبدأت قصة حبنا تأخذ شكلا جديا منذ أواخر السنة الأولى فى الكلية..

هل تصدقين يا ميرفت أننى قاومت نفسى عشرات المرات - منذ أول العام - كيلا أواجهك بما يعتمل فى قلبى ؟

وهل تعتقد أننى لم أبادلك هذا الإحساس، وتمنيت عشرات المرات أيضا أن تبادر بالكلمة الأولى، خوفا من أن أبدأها أنا فتخطىء فهمها ؟..

صريحة هى شفافة.. تفصح عن مشاعرها بلا احتجاز، الأمر الذى جعلنى أثق فيها بلا حدود...

فى البداية تلاقت روحانا وقلبانا فى الخفاء.. ثم انفجرت ينابيع حبنا تترجم أشواقنا حديثا شيقا ممتعا ظل ينمو ويكبر أربع سنوات هى عمر دراستنا...

وبمجرد أن ظهرت النتيجة، وظهر اسمانا فى كشوف الناجحين..

أسرعت بالتقدم إلى والدها طالبا يد ابنته ميرفت...

وتكللت أحلامنا الوردية التى ظللنا نغذيها بتوقعاتنا المتسقبلية عن العمل فى القطاع الخاص حينما وجدنا عملين بأجر مغر لنحقق ما رسمناه لعشنا الجميل، وقطع الأثاث التى سننتقيها وعن وعن ...

أحلام شباب متطلع فى بداية الطريق ...

كان والدها إنسانا بمعنى الكلمة.. وعدنا أن يساعدنا بالكثير.. إلا الشقة، علينا نحن متعاونين أن نتكفل بها من جميع الوجوه، وهو غير مسئول عن مليم من ثمنها...

وبدأنا العمل فترتين.. بمرتبات مجزية جدا، وبقدر المرتب كان العمل الشاق صباحا ومساء.. وماذا يهم ونحن نتمتع بالشباب والصحة ويدفعنا الأمل البسام.؟

وعقدنا الخطبة، ولم يطلب منى والدها مهرا أو شبكة، بل اكتفينا بخاتمين على أن نوفر كل قرش لشراء العش المأمول ..

ومضى عامان فى عمل دؤوب ، لم نفكر خلالهما فى نفسينا .. لا سينمات ، لا مسارح، لا عشاء فى الخارج.. بل نكتفى خلال مقابلاتنا بأقل القليل.. فأمامنا المستقبل بطوله وعرضه. وسنستطيع أن نعوض كل ما فاتنا فشراء الشقة له كل الأولويات...

وخلال مقابلاتنا الخاطفة كنت أنظر بحزن إلى الإرهاق البادى على وجهها وعينيها، وأسألها فى إشفاق متوجس :

هل تعبت يا ميرفت ؟ لا عليك يا حبيبتى.. رحلة الألف ميل طويلة وشاقة .. ولكنها تبدأ بخطوة فى الاتجاه الصحيح.. وهانحن قد قطعنا شوطا طويلا منها.. ولم يبق إلا القليل.. وكانت تجيبنى كإنما تهدهدنى بالكلمات :

– التعب الذى يشعرنى أننى ابنى مستقبلنا ينقشع بمجرد

اخلادى للنوم.. فأصبح وكلى نشاط وحيوية فى بداية اليوم الجديد..

وأطيب خاطرها وأنا أقول :

– هانت يا ميرفت! لم يبق إلا ميل واحد من رحلة الألف ميل..

وهانت فعلا، فبعد عامين من العمل المتواصل استطعنا أن نجمع – أنا وهى – ستة آلاف بالتمام والكمال، كل ما ادخرناه.. لم نقتطع منه قرشا .. أعطيناها – مقدم إيجار شقة – لصاحب عمارة فى منطقة سكنية جديدة. على أن نتسلم الشقة بعد عام، وندفع له مثل هذا المبلغ...

وكانت هذه دفعة لكلينا جعلتنا نضاعف جهودنا لندخر مثل هذا المبلغ خلال هذا العام... وطلبت من والد ميرفت أن يمهلنى عاما آخر، لكنه أصر لعقد القران ونعيش فى بيته وسط أخوتها.. وأصرت ميرفت على التريث ، فالزواج سيترتب عليه أشياء كثيرة نحن فى مسيس الحاجة لتجنبها الآن لنتفرغ للعمل فقط...

ومن وقت لآخر كنا نحج إلى العمارة لنتأكد من سير العمل وقد أوشكنا على نهاية العام.. إلا أن البناء لم يكن يتقدم كثيرا !.

بل أن شقتنا لم يبدأ العمل فى بنائها ! وكانت فى الطابق الثالث، ولم يكن قد أكمل بعد الطابق الثانى.. وطلب منى الانتظار عاما آخر!

وماذا كان فى يدنا أن نفعل؟ وأفقنا، خصوصا أننا لم نستطع أن نجمع خلال هذا العام – رغم كل ما تكبدنا – المال الذى طلبه.

وحمدنا الله أن عاما آخر سيمكننا من جمع المال المطلوب، وربما أكثر...

وعاد والد ميرفت يكرر طلبه.. وفى هذه المرة كان قاسيا، إذ طلب منى أن أتحمل نصف أثاث البيت بكل محتوياته، وهو سيقوم بالنصف الثانى، لأن لديه أخواتها وهن فى حاجة إلى مبالغ كبيرة.. خصوصا وأن الأعوام تمر، ولو كنا تزوجنا منذ عامين لكان الحال أفضل كثيرا من الآن...

ووقفنا - أنا وميرفت - نرجوه أن ينتظر عاما رابعا فقط .. وسنكون مستعدين لكل شىء.. ولن نكلفه إلا ما يريده هو فقط ...

وسكت على مضض، إلا أنه كان دائم الشجار مع ابنته.. وكانت والدتها تنضم إليه فى كثير من الأحيان.. فهى تريد زواج ابنتها الكبرى لأن من تليها يتقدم لها العرسان، خصوصا وأنها وصلت إلى نهاية دراستها الجامعية...

لم تشك لى ميرفت. ولكننى أحيانا كنت أرى التعاسة التى لم تستطع أن تداريها - مرسومة على وجهها - كنت أشعر بها .. وأضغط على نفسى وأظل أعاتبها وأهون عليها، ونتصور معا الشقة الجميلة فى الطابق الثالث من العمارة الفخمة الضخمة التى سترتفع طوابقها - كما قال لنا صاحبها - إلى أربعة عشر طابقا... هذا عدا الحديقة الغناء التى ستحيط بالعمارة، وكانوا يعدون لها، ونتخيل

ولدينا وهما يلعبان فيها : الولد على دراجته ، والبنت فوق حصانها الخشبى.. ونحن نرعاهما، ونلعب معهما.. ونعتبر سنوات كفاحنا كحلم تبدد خلال وهج حبنا القوى الذى يزداد تماسكا كلما واجهتنا المصاعب...

وانتهى العام الرابع.. وذهبنا بالأمل كله لندفع الستة آلاف الثانية.. وكان فعلا على وشك الانتهاء من التشطيب، وقابلنا بكل الترحاب، ورحنا نجوب فى أرجائها ونتبادل اقتراحاتنا فى وضع قطع الأثاث وأين ستكون حجرة النوم؟ ثم حجرة الطفلين وحجرة المعيشة وحجرة الطعام، أما المطبخ فكات رحبا بحيث نتمكن من وضع مائدة صغيرة لنتناول عليها الطعام... وضحكنا كثيرا وصاحب العمارة يهنئنا بفوزنا بهذه التحفة التى ستكون جاهزة للاستلام بعد ستة أشهر... فهى من أجمل شقق العمارة.. وخصوصا أنه الآن يبيع الشقق تمليك، فقد انتهى عهد المقدم والمؤخر .. وربت على ظهرى وهو يقول :

– حظكما من السماء ! السقة الآن بـ ٤٥و٥٠ «باكو» دفعة واحدة.

تسلم الستة آلاف الثانية، ووضعها فى جيبه، ولم يعطنا إيصالا، فهذا كان شرطه منذ البداية حتى لا يدخل مع المختصين – كما قال – فى س و ج ... ووافقنا بكل سرور وقد توسمنا فيه الصدق

والجدية، فهو رجل محترم يدعو للثقة، وقد وعدنا أن هذا المبلغ سيكون من الإيجار، وأنه سيقسطه لنا شهريا.. فيرتفع عن كاهلنا مدى سنوات طويلة - إيجار البيت...

وخرجنا من عنده لنشترى البوتاجاز والسخان والتليفزيون والسعادة تغمرنا لدرجة أشعرتنا أننا نطفو على الأرض، وأن أبداننا فى خفة الريشة وفى هذا اليوم، وبعد أربع سنوات من الكدح الذى لا يعرف الهوادة، دخلنا مطعم الكبابجى وطلبنا كيلو كباب، وحمامتين مشويتين، وجلسنا نأكل ونضحك ونستعيد الماضى بحلوه ومره.. وكأن حياتنا بدأت من هذه اللحظة.. وقلت :

- ألم أقل لك يا ميرفت أننا سننسى كل ما صادفنا من إرهاق بمجرد أن نتسلم الشقة ؟

وضحكت ميرفت من قلبها لأول مرة وقالت :

- الآن سيحضر لنا بابا غرفة النوم والصالون والسفرة.

أما الأنتريه والمطبخ وحجرة الاولاد فسنتعاون معا يا أشرف فى احضارها على مهل... ولا يهمك، المهم أننا سنستلم الشقة بعد ستة أشهر...

وانتهينا من طعامنا وعرجنا على محل جلاس مشهور ورحنا نلتهم المثلجات وكأننا طفلان خرجا إلى الطريق بمفردهما لأول مرة فى حياتهما وهما يمرحان ويقهقهان لا تسعهما الدنيا بأسرها..

وأخذتنى ميرفت إلى بيتهم لنزف البشرى لوالدها.. وجلسنا مع أفراد العائلة نعد العدة ليوم تسلم الشقة.. وقرر والدها أن يحضر لنا - علاوة على ما وعدنا به - كل مالا نستطيع شراءه...

وسهرت ليلتها عندهم إلى ساعة متأخرة من الليل.. وتواعدنا أنا وميرفت - أن نتقابل فى اليوم التالى - اجازتنا الأسبوعية - لنشترى بما معنا من نقود، بعض لوازمنا... لأن الأجهزة ترتفع أسعارها يوما بعد يوم..

وفى الساعة الثامنة صباحا، استيقظت، وقفزت من السرير أصفّر وأصفّر ، واستغربت ذلك والدتى، وهى التى لم تكن ترانى - خلال هذه السنوات - إلا ساهما شارداً أفكر وأحسب... فأخبرتها بكل الخطوات التى حدثت يوم أمس وقد سجلته عندى فى الأجندة تحت عنوان «بداية الانفراج، وزوال النحس»..

وسكتت والدتى وهى تتمتم :

- إلهى يسعدك يا بنى... ويسهل لك العب، ويكفيك شر أولاد الحرام..

وفى طريقى إلى الحمام رن جرس التليفون فأسرعت إلى السماعة، وأنا أقول بصوت متهلل :

هذه ميرفت، تتعجل اللقاء ... لها حق ...

ورفعت المسماع فأتانى صوتها فيه رنة ارتجاف على غير

عادتها.. ولم أتركها تتكلم، وصحت :

- ثواني يا ميرفت وأكون عندك ...

وازداد ارتجاف صوتها وهى تقول :

- هل وصلتك جرائد الصباح ؟

وتسرب إلى بعض قلقها وقلت :

- كلا . كفا الله الشر... ماذا حدث ؟

- قبض على صاحب عمارتنا بتهمة النصب والاحتيال وضاع علينا المبلغ كله الذى أفنينا عمرنا فى جمعه...

وفتحت فمى لأتكلم لكن صوتى احتبس.. وسقطت السماعة من يدى..

صوفى عبد الله.. ومشوارها الأدبى

دراسة بقلم : يوسف الشارونى

ولدت القصاصة والروائية صوفى عبد الله فى الخامس عشر من يناير عام ١٩٢٥، تلقت العلم فى معاهد أجنبية إنجليزية وفرنسية وإيطالية، ثم فى معهد نسائى خاص، كما تلقت دروس اللغة العربية على يد أستاذ بالمنزل منذ سن السابعة.

وقد بدأت كتابة قصصها الأولى عام ١٩٤٢ وحصلت من إدارة الثقافة بوزارة المعارف المصرية على الجائزة الأولى للقصة عام ١٩٤٧، ومنذ عام ١٩٤٨ تولت التحرير وكتابة الرواية القصة القصيرة والمقال بمجلات دار الهلال ، كما قامت خلال ذلك – ولمدة خمسة عشر عاما – بتلخيص الكتب والمسرحيات العالمية لمجلة الهلال الشهرية، ويتجاوز عددها ستين كتاباً ورواية، كذلك تولت منذ يناير ١٩٥٥ حتى بداية التسعينيات تحرير باب «مشكلتك» برؤية فكرية واجتماعية فى مجلة حواء الأسبوعية التى كانت تنشر فيها كذلك

قصة قصيرة مرة فى كل شهر. وأول أقصوصة نشرت لها كانت فى مجلة المصور فى مايو عام ١٩٤٨ بعنوان الروشتة الأولى، بعدها توالت أقاصيصها فى مجلات دار الهلال، كما نشرت لها قصص فى مجلات القصة والرسالة الجديدة وقافلة الزيت.

أما **مجموعاتها القصصية** فهى على النحو التالى :

كلهن عيوشة، نشرتها كتب للجميع عام ١٩٥٦.

ثمن الحب، عام ١٩٥٧.

بقايا رجل، نشرها المكتب التجارى ببيروت عام ١٩٥٨.

مدرسة البنات، سلسلة الكتاب الذهبى، روز اليوسف عام ١٩٥٩.

نصف امرأة، سلسلة الكتاب الذهبى، روز اليوسف عام ١٩٦٢.

ليالٍ لها ثمن ، المؤسسة المصرية ، ١٩٦٤.

ألف مبروك ، كتاب الهلال ، ١٩٦٥.

عروسة على الرف، دار المعارف، ١٩٦٦.

أربعة رجال وفتاة، روايات الهلال، ١٩٧٣.

القفص الأحمر، دار المعارف، ١٩٧٥.

شىء أقوى منها، رواية الهلال، ١٩٧٥.

نبضة تحت الجلد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥.

ورواياتها :

نفرتيتى ، دار الهلال، ١٩٥٢.

لعنة الجسد، دار النشر الحديثة، ١٩٧٥.

دموع التوبة، المكتب التجارى، ببيروت، ١٩٥٨.

قصور على الرمال، الكتاب الذهبى، ١٩٦٠.

عاصفة فى قلب، كتاب الهلال، ١٩٦١ وقد أعادت دار المعارف نشرها فى سلسلة اقرأ.

وأخيراً روايتها «اللغز» عام ١٩٧٥.

أما **مسرحياتها** فهى على النحو التالى :

كسبنا البريمو، التى مثلت على مسرح الأوبرا فى يناير عام ١٩٥١.

زوج تفصيل.

فرحة ما تمت.

فتش عن الرجل .

ومن مؤلفاتها :

نساء محاربات، نشرتها دار المعارف ، عام ١٩٥١.

نوابغ النساء، كتاب الهلال، ١٩٧٣.

حواء وأربعة عمالقة: دراسة تحليلية عن العقاد، طه حسين، توفيق الحكيم، نجيب محفوظ.

ومما عرّبته بتصرف:

روائع شكسبير لتشارلز وميرى لام، وظهر فى جزأين.

قلب النسر ، وهو سيرة حياة نابليون.

غادة النيل ، وهو من حياة نفرتيتى.

جينكيز خان.

غاندى :

فضلا عن عشرات الرواية المترجمة، وكلها صدرت عن دار الهلال.

وصوفى عبد الله عضو بنقابة الصحفيين ونادى القصة وجمعية الأدباء ونادى القلم الدولى واتحاد الكتاب، كما كانت عضوا بلجنة القصة بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب.

وبذلك تكون صوفى عبد الله قد نشرت اثنتى عشرة مجموعة قصصية وست روايات وأربع مسرحيات، وأربعة مؤلفات أخرى بالإضافة إلى ما لخصته من عشرات الكتب وما ترجمته من روايات.

وتدور معظم قصص هذه المجموعة حول الأنثى المقهورة من مختلف الطبقات وفى مختلف مراحل الحياة، بلغة سهلة بسيطة.

وتحرص صوفى عبد الله أن تقدم فى قصتها المناخ الذى أدى إلى قهر بطلتها، أحيانا تكون أنوثتها سبب هذا القهر، وأحيانا أخرى يكون وضعها الاجتماعى المتواضع مما يمكن أن يشاركها فيه رجل فى وضع مشابه، لكن صوفى عبد الله تقدم شخصيتها من خلال مشاعر المرأة.

مثال ذلك قصة «الرغبة الوحيدة»، فإن الذى حال دون تحقيق رغبة كوثر فى الالتحاق بكلية الطب كان وضعها الطبقى المتواضع، وليس انتماءها إلى عالم المرأة، فليس هناك حاجز يحول دون الفتاة والالتحاق بكلية الطب، وكان يمكن لكوثر أن تلتحق بسبب ما حصلت عليه من مجموع درجاتها المرتفع لولا وضعها الاقتصادى الذى أرغمها على دخول كلية التربية.

كذلك قصة «أما لهذا الليل من آخر؟» تقدم لنا فيها صوفى عبد الله الصراع الداخلى لامرأة عاشت مع زوجها الذى يكبرها باثنين وعشرين عاما «سنوات سبع اعتبرها عمرى كله»، ثم مرض مرضاً أعجزه عن اروائها عاطفيا وجسديا بينما «صديق عمرها يناوشنى بالنظرات أحيانا، وأحيانا أخرى بالكلمات التى تحمل معنيين».

صراعها بين واجب هو رعاية الزوج الذى اختارته يوما بمحض إرادتها، وجسد عرف مباهج الحياة وأترع منها حتى الثمالة ثم منعت عنه منعا كليا، ولا حل إلا الانتظار إن كان الانتظار حلا.

وهكذا تزدحم القصص بمختلف الشخصيات النسائية : الأم الحنون التى ترعى ابن أختها المتوفاة منذ كان رضيعا حتى أصبح أبا له أطفال ترعاهم وقت انشغاله وزوجته بعملهما (بحر من الحنان)، البنت المسترجلة التى لم توفق فى الزواج حتى مع من أحبت لأنه أعلن لها أنها ليست من النوع الذى يلائمه (وسقطت من

أعلى الجميزة) ضحية العصامية التى ما أن تغلبت على فقرها المدقع حتى وقعت ضحية حماة مستبدة قضت على خصوصية حياتها، حتى أنها لا تستطيع أن تنفرد بأكلة شهية تتوق إليها (الوليمة)، نجلاء الطفلة المتبناة ذات الثلاثة أعوام التى فقدت ما تتمتع به من رعاية وحب بمجرد أن رُزق أصحاب البيت بطفل، فانتقلت من مركز الحنان إلى هامشه (أشجان «نجلاء»).

ولئن كان المؤهل التعليمى لكثير من بطلات القصص مؤهلا متواضعا بسبب تواضع الطبقة التى ينتمين إليها، إلا أن بعضهن يملكن مؤهلا آخر ليس فى حوزة الرجال، هو مؤهل الجمال الذى يمكن أن يرفعهن – عن طريق الزواج – إلى طبقة أعلى لا يصل إليها الإنسان فى عالم الرجال إلا بمؤهلات أخرى.

لكن الزواج قفزة إلى عالم مجهول، أحيانا يكون زواجا موفقا ثم يفسده مرض الزوج على غير توقع، وأحيانا تشوهه حماة خشنة التصرف، وأحيانا يهدده عدم الإنجاب، وأحيانا زوج كان ثراؤه وهجا أعمى عيون العذراء الحالمة فإذا هى فى قفص من ذهب، زوجها يريدها كالدمية، كإحدى التحف التى يشغف بجمعها واقتنائها حتى أنها يوم تسلمت ورقة الطلاق – لأنها تجرأت وأكلت قطعتين كبيرتين من الشيكولاتة – شعرت بالراحة لخروجها من هذا السجن الذى فرض عليها،

أما كارثة الكوارث بالنسبة للمرأة فهى أن تكتشف فجأة أن زوجها متزوج بأخرى، بل وأنجب منها ولداً وبنتا (جبل الثلج العائم)، والسبب فى قصتنا هنا أنها كانت فى برودة جبل الثلج العائم، وإن كان يبدو للناظر البعيد رائعاً ينعكس عليه الضياء لأنها تستطيع أن تدارى تماما كل ما يمس كرامتها من قريب أو بعيد.

إن صوفى عبد الله تتعاطف مع المقهورات من بنات جنسها سواء لوضعهن الأنثوى أو وضعهن الطبقى أو الاثنين معا، وتكشف لنا عن همومهن وطموحاتهن وأحلامهن واحباطاتهن بأسلوب الحكاية الممتعة البسيطة.

* * *

ويمكن أن نشير إلى روايتها «عاصفة فى قلب» التى كانت من أواخر إبداعها الروائى كنموذج على فنها الروائى، فهذه الرواية يمكن رؤيتها من أكثر من زاوية، يمكن أن تكون قصة الثلاثى المشهور: الزوج والزوجة والعشيق، أو قصة امرأة أتاح لها وضعها الاجتماعى من الفراغ الزمنى والنفسى أن تلهو بامتلاك شخص ما فإذا باللهو ينقلب جدا بل إلى مأساة، أو - كما رآها الدكتور غالى شكرى - المرأة التى تعانى أزمة الضمير العربى فى ضياعها بين أصالتنا الخافقة فى أحضان زوجها عونى والمثلة الفطرية التى تكمن فى أعماقها على حد تعبيرها.

ولقد عالجت صوفى عبد الله موضوع المرأة التى تستهوى فتى فى سن أبنائها سواء على مستوى القصة القصيرة أو المستوى الروائى، ونكتفى بذكر مثالين لكل من المستويين.

ففى أولى قصص مجموعتها «القفص الأحمر» - وهى القصة التى أطلقت عنواناً على المجموعة - نلتقى بموظفة عانس بسبب رفضها ما يتاح لها من عروض وليس بسبب انصراف الرجال عنها، وهى فئة أمكن وجودها فى حياتنا المعاصرة بعد أن كانت شبه معدومة قبل خروج المرأة للعمل وما استتبع ذلك من قدرتها على الاختيار والرفض، هذه الموظفة العانس يتسلل إليها شاب فى نصف سنها طالب مبتدئ فى كلية الطب، بديع التكوين والصورة، كانت أمه صديقتها أرسلته إلى القاهرة ليعيش فى كنف صديقتها، وأوصتها به خيراً فأسكنته بنسيوناً بجوار بيتها للمبيت فقط، أما وجباته وغسيله وكل ما يتعلق بحاجاته فعندها فى بيتها تحت إشراف والدها وأختها الكبرى، ثم على سبيل الترفيه - كما حدث تماماً فى رواية «عاصفة فى قلب» - اتخذت منه أنيساً وجليساً، بينما اتخذ هو على سبيل الجد حياته معها فأحبها بل عشقها، وكما تتسرب دماء الشباب فى العود اليابس فتحييه وتزهره، كذلك أحيا شبابه عودها الذى كان فى طريقه إلى الجفاف، فازدهرت وأينعت وأصبحت كأنها شابة فى الثانية والعشرين، ومثلما حدث فى روايتها «عاصفة فى قلب»، إذا

بالمزاح ينقلب جداً وإذا اللعبة تصبح شغلها الشاغل. وحين انتهى من دراسته الطب طلب منها أن تستقيل من منصبها الكبير ليتزوجا وتصاحبه إلى محل عمله فى جحر قاص من جحور الريف، وتكشف الصدام عن طريقين مختلفين لا يلتقيان: هى تأبى أن تترك مركزها الكبير بعد كل هذا الكفاح وتطلب منه أن يجد عملا بالقاهرة، وهو يريدها أن تكون زوجة تعنى بالبيت وتلد البنين فى سن لا تخصب فيه المرأة حتى لو أرادت.

أما روايتها «لعنة الجسد» التى صدرت ١٩٥٨ أى قبل صدور رواية «عاصفة فى قلب» بـ ثلاث سنوات فموضوعها أكثر تعقيدا، لأن العلاقة ليست مجرد علاقة بين امرأة ناضجة وفتى فى سن ابنها، بل هى علاقة بين أم وابنها، وهى ليست مجرد علاقة عاطفية بل تصل إلى حد العلاقة الجنسية، مما جعل البعض يربطون بينها وبين مأساة أوديب، فبطلها فتى مدلل ينشأ فى أسرة متوسطة على أن أمه قد ماتت ثم، يرتبط فيما بعد بامرأة محترفة فى المدينة ارتباطا جنسياً، ويفاجأ الجميع بأن المرأة هى أم الصبى التى انحرفت بسبب زواجها من رجل أكثر ثراء لكنه أيضا أكبر سنا، مما يذكرنا على الفور برواية «شرقى عدن» للكاتب الأمريكى جون شتاينبك.

وتقترب كثيراً رواية «عاصفة فى قلب» من رواية «لعنة الجسد»، فسنجد الزوجة أميرة التى تقف من زوجها عونى موقف الابنة من

أبيها، وفى الوقت نفسه تختلط مشاعرها نحو عشيقها الشاب ضد خورشيد بمشاعر الأم نحو ابنها، غير أن التركيز فى لعنة الجسد على الابن، بينما هو فى «عاصفة فى قلب» على المرأة ابنة وأما، زوجة وعشيقة.

* * *

ولعل أهم ما يبهرنا فى رواية «عاصفة فى قلب» لصوفى عبد الله هو ذلك الأسلوب الرصين المتدفق الذى بذلت فيه الكاتب جداً واضحاً من أجل تطويعه لمطالب الفن القصصى الذى يتناول حياتنا اليومية المعاصرة، وقد ساهمت جزالة اللفظ فى إضفاءجو المأساة الذى يخيم على الرواية.

كذلك اتسم الأسلوب بسمة أخرى بارزة هى استخدام المونولوج، فأميرة تناقش نفسها من حين لآخر موضحة الأمور لنفسها بل مجابهة نفسها مجابهة صريحة، وهى تطلق على هذا الصوت الداخلى حينا نفسى اللوامة لى بالمرصاد أو الرقيب الرابض فى داخلى أو صوت من أعماقى والمتكلمة بلسانى ونفسى المتمردة التى لا تريد أن تهدأ.

كذلك فإن صوفى عبد الله تستخدم الرمز فى أكثر من موضع، فهى تخلع خاتمها الثمين الذى أهداه لها زوجها، منذ بضعة أيام وتضع بدلا منه خاتماً رخيصا تصفه أميرة بأنه كان مبتذلاً بصورة

واضحة، وهى إشارة واضحة لتفضيلها خورشيد على زوجها، وعندما تطور الموقف إلى العكس أى أن عواطفها بدأت تتخلى عن خورشيد فإننا نلتقى برمز آخر : ففى ركن السقف الأبيض رأت عنكبوتاً صغيراً يدب بخفة ويرسل أول خيوط لينسج هناك بيتا له، ثم لفت نظرها حجمه الصغير، وتصفه أميرقبأنه يستقبل الحياة فى قوة وثقة حيثما وجدها فى سقفى أو سقف سواى فلابد أن يعيش لأن الحياة تضج فى أعماقه وتستحثه، ثم تفصح عن دلالة الرمز حين قامت ونادت خادمها حسن، فى غيظ، ووقفت فى ثبات حازم ترقبه وهو يقضى على الحيوان الصغير ويحمله بعيداً عن سقف حجرة نومها الناصع البياض، وتلك إشارة واضحة إلى صراعها مع نفسها فى موقفها من خورشيد.

إن المرء لا يسعه إلا أن يتساءل فى نهاية قراءته لرواية «عاصفة فى قلب» للسيدة صوفى عبد الله عما إذا كانت قد أرادت أن تقدم حقاً نموذجاً لضياع المرأة المصرية بين خضوعها للرجل بمزيج من سيطرته وحبه، وانطلاقها إلى درجة التحرر من كل قيد.

* * *

وبعد، فإن المرء ليعجب كيف أن أديبة مخضرمة مثل صوفى عبد الله اقتربت من الثمانين نشرت مايزيد على المائة كتاب ما بين رواية ومجموعة قصصية ومسرحية وروايات وكتب مترجمة واشتغلت

بالصحافة عشرات السنوات، تقف اليوم بباب دور النشر منذ سنوات محاولة عبثاً أن تنشر ثلاث مجموعات قصصية هى : «عيون لها أسنان» تنتظر النشر فى دار روز اليوسف، و«فى انتظار أمل»، تنتظر النشر فى دار أخبار اليوم، و«حالة تلبس»، تنتظر النشر فى دار الهلال التى أعطتها زهرة شبابها وحياتها، بل قيل لها إن بعض هذه النصوص قد فقدت وهى لا تملك أصولاً أو نسخاً لها فضلاً عن تجاهل الهيئات الأدبية الرسمية لها، فلا أحد يفكر فى تتويج مشوارها الأدبى الطويل - والذى قطعته مع زوجها الراحل الدكتور نظمى لوقا - ولو بمجرد ترشيحها لجائزة الدولة التقديرية، وهى التى لم تحصل على جائزتها التشجيعية فى القصة القصيرة أو الرواية، من المسئول عن ذلك؟ الشللية أم عدم إجادتها فن العلاقات العامة ؟ إن انزواءها بعد توهجها إدانة لحياتنا الأدبية .

ويسر نادى القصة أن ينشر لها هذه المجموعة القصصية الجديدة فى سلسلة «كتابه الفضى». كما أقام لها احتفالية فى نهاية عام ٢٠٠١ وقدم لها لوحة تكريمية من إهداء الأديبة «لوسى يعقوب» عضو النادى.

الفهرس

صدر من هذه السلسلة

١ - الأم الصغيرة وقصص أخرى - الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة عام ١٩٩٨.

٢ - يوميات عروبة - د. هانى الرفاعى.

٣ - ماروا‌ه البحراوى - عبد الرحمن شلش .

٤ - أبناء نادى القصة - محمد محمود عبد الرازق.

٥ - زوجتى تريد أن تزوجنى - فتحى سلامة .

٦ - الحى الراقى - فتحى مصطفى .

٧ - الياسمين يتفتح ليلا - عزت نجم.

٨ - حدائق السماء - محمد سليمان.

٩ - الفائزون بجوائز آخر القرن العشرين - الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة.

١٠ - دلونى على السبيل - محمد الشريف.

١١ - الجدة حميدة - حسن الجوخ.

١٢ - فستان زفاف قديم - على عيد .

١٣ - بحر الزين - حسن نور.

١٤ - من أوراق العمر - محمد كمال محمد.

١٥ - إحراج - نادية كيلانى.

١٦ - البنات - هدى جاد .

١٧ - عاد الأسد .. أسدا نبيلا - عبد المنعم السلاب .

١٨ - عراف السيدة الأولى - محمد القصبى .

١٩ - حكايات عن العربيد - صلاح عبد السيد .

٢٠ - السلمانية - صلاح معاطى .

٢١ - الفائزون أول القرن الحادى والعشرين - الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة.

٢٢ - صبحى الجيار والمحنة المضيئة - مصطفى عبد الوهاب.

٢٣ - الرغبة الوحيدة - صوفى عبد الله.

الإصدار القادم

الغزال فى المصيدة - محمود البدوى

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)